I B R A H I M A L - K O N I

روايه
NOVEL



إبراهيم الكوني

# في مكانٍ نسكنه في زمانٍ يسكننا









إبراهيم الكوني

---

# في مكان نسكنه
# في زمان يسكننا




في مكانٍ نسكنه
في زمانٍ يسكننا

**في مكان نسكنه ، في زمان يسكننا / رواية عربيّة**
إبراهيم الكوني / مؤلّف من ليبيا
**الطبعة الأولى ، 2006**




**المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر**
**المركز الرئيسي :**
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب :5460-11 ، العنوان البرقي : موكيّالي ،
هاتفاكس : 751438 / 752308
**التوزيع في الأردن :**
**دار الفارس للنشر والتوزيع**
عمّان ، ص. ب : 9157 ، هاتف : 5605432 ، هاتفاكس : 5685501
E-mail : info@airpbooks.com
موقع الدار الألكترونيّ : www.airpbooks.com
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®

لوحة الغلاف : **لفنّاني ما قبل التاريخ / الصحراء الليبيّة ، الألف السابعة ق. م.**
الصفّ الضوئيّ : **رشاد برس**
التنفيذالطباعيّ : **رشاد برس / بيروت ، لبنان**



ISBN 9953-36-940-2

بالدنيا: نحن نسكن المكان،

ولكن الزمن يسكننا.

بالأبديّة: نحن نسكن الزمان،

ولكن المكان هو الذي يسكننا.

**«غضونٌ هزيلة لأثرٍ دقيقٍ شبيه بخيوط يحبكها العنكبوت فلا تكاد تُرى؛ يلقيها حول رقاب الضحايا جلادٌ اسمه الزمان. نسيج العنكبوت هذا يبدو في البداية من النحول بحيث لا يملك إلاّ أن ينقطع في كل مرّة من فرط نحوله. ولكن آثاره في النهاية تتجسّد وتتجسّد إلى أن يأتي اليوم الذي تعلن فيه عن نفسها فتفعل في الرقاب فعلها!».**

(وورن)

«أوقفني الحقّ بين يديه ألف موقف؛ في كلّ موقف يعرض عليّ المملكة، فأقول: لا أريدها. فقال لي في آخر الموقف: يا أبا يزيد! أتريد؟ فقلت: أريد ألاّ أريد!».

(أبو يزيد البسطامي)

# 1

ـ الكنز الذي ورثته عن أبي ليس العرش كما يحسب الدهماء، ولكنه الوصايا. .

ابتسم جليس الباشا في ذلك اليوم قبل أن يقول:

ـ يقال عندنا أن الإنسان لا يصير أطول قامةً من أسلافه ما لم يقدّس وصايا أسلافه.

ولكن الباشا تجاهل تعليق المسيو «جاردان» وأكمل عبارته:

ـ وليس من قبيل المبالغة أن أقول أن احترام العهد مع فرنسا هو أحد أهم أركان وصاياه!

تمتم المسيو «جاردان» كأنه يحدّث نفسه:

ـ هل وردت كلمة «عهد» على لسان الباشا أم أني توهمت؟

ـ بلى. أحمد الأكبر كان يرى العلاقة مع بلادكم علاقة عهد وليست علاقة منافع كما هو الحال مع بقية البلدان.

ـ يسعدني أن يرث الباشا عن أبيه كنزاً أعظم من السلطان، بل وأكبر شأناً حتّى من الوصايا ألا وهو: الحكمة!

ـ وكي أبرهن على نيّتي في تنفيذ وصيّة والدي رأيت أن أبعث رسولاً لجلالة ملك فرنسا.

سكت المسيو «جاردان» لحظة. خطر له أن يتساءل عن الكيفية التي تحوّلت فيها المعاهدة بين البلدين عهداً، ولكنه استسخف السؤال فأحجم في آخر لحظة. قال:

ـ يطيب لي أن أنقل لصاحب الجلالة نيّة سعادتكم في إرسال المبعوث!

ويبدو أن الباشا حدس وسوسة المستشار عندما عاد للحديث عن العهد بدل الكشف عن فحوى الرسالة التي شاء أن يبعث بها لملك فرنسا:

ـ لقد مهرنا المواثيق مع بلادكم بالدّم بدل المداد كما هو الحال مع البلدان الأخرى. ولهذا سمحت لنفسي أن أسمّي الاتفاقات الموقّعة مع بلادكم بـ«العهد» بدل المعاهدة، فهل خذلتني العبارة، أم تراني أفلحت؟

ابتسم المستشار. قال:

ـ بل التوفيق هو الذي حالف الباشا!

ـ لم أكن لأحسب حفظ الوصيّة مأثرةً لولا ما قد تعلمون من عسرٍ يجده كل من يحاول أن يردع شهوة القوم إلى غزو البحر.

ـ ذلك لأنهم لم يحسنوا عملاً غير عمل البحر يا سعادة الباشا.

ـ علّكم تدركون ماذا يعني أن تقمع في القوم الشهوة إلى فعلٍ جبلوا عليه منذ نعومة أظفارهم!

ابتسم المستشار مرة أخرى:

ـ لا يجب أن نأمن شرّ إنسان منعناه من ممارسة عمله!

تجهّم قبل أن يضيف:

ـ من قمع في الإنسان عمله فقد قمع في الإنسان رسالته، ومن قمع في الإنسان رسالته فقد قمع في الإنسان سعادته. ومن قمع في الإنسان سعادته فقد عرّض حياته للخطر!

نهض الباشا. تطلّع إلى اليمّ المهيب الذي يستلقي تحت أقدام القلعة ويذهب عبر المدى إلى الأبد. قال:

ـ أنت لا تدري كم يعشق هؤلاء الأوباش هذا الوحش!

ـ أستطيع يا سعادة الباشا أن أتخيّل!

ـ إنهم لا يتلهفون للقاء معشوقهم هذا طلباً للكنوز وحدها كما يظنّ البلهاء، ولكن الكنوز في جوف البحر ما هي إلاّ حجّة، صدّقني!

ـ أصدّقك يا سعادة الباشا.

ـ في الطفولة كنت أنتظر عودة هؤلاء الفرسان من غزواتهم لأملأ عينيّ بغنائم ظننت دائماً أنها سبب ركوبهم للأخطار، ولكني أدركت مع الأيام أن الغنائم ما هي إلاّ حجّة لعمل آخر. .

سكت. سرح في اليمّ بعيداً. أضاف:

ـ البحر ليس بحراً. البحر هو الحياة!

ابتسم المسيو «جاردان». ردّد بغموض:

ـ أجل. البحر هو الحياة.

استدرك:

ـ ليس البحر وحده هو الحياة. الحياة، يا سعادة الباشا، هي كلّ ما يروق لنا أن نطارد!

ـ أنت تدرك الآن ما معنى أن أمنع الرجال من الخروج إلى

البحور؛ ذلك يعني أني لا أضعهم في قمقم فحسب، ولكني أحقّق أعجوبة أخرى هي أن أجبرهم على العطالة لا عن العمل، ولكن عن الحياة!

تمتم المسيو «جاردان»:

ـ لن يُحسد إنسان على عملٍ كهذا!

ـ لا أقول هذا لأتباهى، ولكن لأدلّل لأصدقائي على صدق نواياي!

حدجه المستشار خلسةً. في عينيه رأى وميضاً خفيّاً. ولكنه لم يرَ الإيماء الذي بحث عنه. في عينيه لم يرَ ظلاً لمكر. فكّر: «ويلٌ له من كيد البلاط إذا لم يرث نصيباً ولو يسيراً من دهاء أبيه!». قال:

ـ صديق فرنسا عدوّ البلاط!

استفهم الباشا بإيماءة، فأوضح المسيو «جاردان»:

ـ يخيّل لي أن على الإنسان الذي قرّر أن يصادق فرنسا بحقّ أن يحسن ترويض سادة البلاط!

تطلّع إليه الباشا زمناً. ابتسم أخيراً. تساءل باستخفاف:

ـ سادة البلاط؟

أجاب المستشار بإيماءة فعاد الباشا يتساءل وهو يشيح ببصره جانباً:

ـ وهل في البلاط سيّد سواي؟

تبسّم المسيو «جاردان» قبل أن يجيب:

ـ خلف ستور كلّ بلاط يتخفّى سادة لا نعلمهم.

حدّق فيه الباشا بفضول. قال:

ـ أريدك أن تكون على يقين أني منذ الأمس أنا البلاط!

ساد صمت مزموم. همّ المستشار بالانصراف. شيّعه الباشا ببسمة شاحبة. وقبل أن يدرك الباب استوقفه بسؤال:

ـ ولكنّك لم تستعلم عن اسم رسولي إلى صاحب الجلالة؟

تلكّأ المسيو «جاردان». أضاف الباشا:

ـ لقد اخترت لهذه المهمّة أنبل أعواني.

لم يستفهم المستشار فأكمل الباشا:

ـ إنه سي حمد نجل حسن كاهية!

## 2

في مساء اليوم الذي انتشر فيه نبأ اختيار أحمد حسن كاهية رسولاً للباشا إلى جلالة ملك فرنسا خاطب الأب ابنه قائلاً:

ـ إذا أفلح أحمد كاهية في بلوغ بلاط ملك النصارى فسوف تتبدّد كل أحلامنا!

كانا يجلسان متقابلين على كرسيين خشبيين في بستان العائلة الكائن بضاحية المنشية، يستمتعان بسكون الحقول في سويعات تلك العشية الشتوية.

علّق الابن:

ـ ما أقسى أن تتبدّد أحلام الإنسان يا أبتي!

تطلّع الأب إلى الابن. ثم سرح ببصره عبر أدغال الحقول

المكتظّة بشجيرات الزيتون المصفوفة في طوابير تعترضها أشجار البرتقال والرمان والتين حيناً وأشجار النخيل حيناً آخر. قال:

ـ ما الإنسان إلاّ حلم. الإنسان لا يعود إنساناً إذا مات في قلبه الحلم!

ـ ما أقسى ألاّ نستعيد تلك الأيام التي يقال أن الطرابلسيين كانوا ينثرون فيها من فرط الثراء هباء الجواهر على أطعمتهم بدل البهار!

ـ إذا أفلح ابن كاهية في الوصول إلى بلاط النصارى فلن نفقد الأمل في الثراء فحسب، ولكننا سوف نجوع!

تبادل الأب مع الابن نظرة ذات معنى. أضاف الأب:

ـ طرابلس ليست مدينة تستلقي على شطوط البحر. طرابلس سليلة بحر. طرابلس خليلة بحر. البحر لفظها من جوفه يوماً لتصير له معشوقةً. وقد آلى البحر على نفسه أن يطعمها من كنوزٍ تتخبّأ في بطنه وأخرى تتسكّع فوق غمره. وعبثاً حاول دعاة التسليم عبر الأزمان أن يخلقوا لها قدراً آخر غير قدرها هذا عندما جاهدوا في أن يخلقوا لها مصدراً آخر للرزق!

ساد سكون الحقول الذي يسبق المغيب. في البعد ارتفع ثغاء جداء. قال الابن:

ـ لا أعرف ما الذي يدفع الباشا للتخلّي عن سلاحه طوعاً وهو في بداية العهد. أيعقل أن يضحّي بسعادة الأقرباء إرضاء للغرباء؟

ـ لا يصير الإنسان سلطاناً حتى تحلّ في قلبه روح مخلوق آخر.

ـ إنه يستهين بنا يا أبتي!

ـ في سبيل تثبيت أركان عرشه يستهين صاحب السلطان حتّى بالخالق فكيف بالمخلوق؟

غمر سيماء الابن شحوب. كوّر قبضته كأنه ينوي أن يوجّه لكمة لعدوّ مجهول. تمتم بصوت مخنوق:

ـ آه لو لم يكن الباشا شقيق أمّي!

انتهره الأب:

ـ إيّاك أن تتوعّد صاحب سلطان حتّى في سرّك!

هيمن سكون. قال الأب:

ـ الرجل ينفّذ، ولكنه لا يتوعّد. هل تريد أن تهلك قبل أن تشرع في فعل شيء؟

ـ أنت رئيس بحريّته يا أبتي. إنه لم يستشرك حتى من باب القرابة. إنه لم يستشرك حتى من باب المجاملة. إنه يسخر منك يا أبي!

ابتسم الأب. قال ببرود:

ـ من حقّه أن يسخر. هل نسيت أنه منذ الأمس لم يعد لك خالاً ولا لي صهراً، لأنه لم يعد محمداً ولكنه محمد باشا سلطان المملكة الطرابلسية؟

ولكن الابن حاجج الأب بإلحاح طفل:

ـ ولكن يجب أن نفعل شيئاً قبل فوات الأوان يا أبتي. أم أنّك ترتضي أن تصبح بين يوم وليلة جسداً بلا روح ما دمت ترتضي منصب رئيس بحرية بلا بحر؟

انتهره الأب:

ـ إذا لم تخرس في الحال فسوف تجد نفسك غداً مصلوباً على باب هوّارة، فاحترس!

ساد السكون. في الحقول انطلقت جوقة الجنادب. في الساحل سُمع نداء باخرة تجارية تتأهب للإقلاع.

خاطب الأب الابن:

ـ يحسن بك أن تجيبني على سؤال قد يوقد في الدهليز شمعة بدل لعناتك التي تجود بها على الظلام!

استفهم الابن بإيماءة فسأل الأب:

ـ هل في رأس سليل حسن كاهية شعرة شمشون؟

ـ ماذا؟

ـ نقطة الضعف! فتّش عن نقطة ضعف تصلح حجّة!

ـ آه..

فكّر الابن. نهض. قطع في البستان خطوات. عاد على عقبيه. توقّف فجأة. هتف:

ـ محمود باي!

تطلّع إليه الأب بلهفة، فأضاف الابن:

ـ أحمد حسن كاهية لمحمود باي خلّ حميم!

تفكّر الأب. نهض أيضاً. سار في البستان. توقّف. قال:

ـ ها قد وجدنا المفتاح!

ابتسم الأب وهو يحدّق في عين الإبن. تنفّس الصعداء وهو يحبك في قلبه فصول المكيدة. قال:

ـ محمود باي درويش حقّاً، ولكنه أحقّ بالعرش من محمد شرعاً لأنه ابن الباشا الأكبر. ولكنه لم يقم للعرش وزناً في يوم من الأيام لأنه درويش! محمود هذا درويش حقاً ولكن الناس ليسوا دراويش حتّى في أتفه شأن من شئون الدنيا، فكيف بأمر جلل كالعرش؟ الناس لم يكفّوا عن الوشوشة في أذن محمود باي بأحقيته في العرش. وحميمه أحمد كاهية أحد هؤلاء. لا، لا. بل هو على رأس هؤلاء. لقد بلغني من أحد خدمي الذي نصّبته جاسوساً في بيت سليل كاهية قوله أن أحمد تسارر مع محمود باي البارحة طوال الليل. وأكّد الخادم أن ابن الكاهية لم يكتفِ بتحريض الباي محمود على الاستيلاء على العرش، ولكنه انكبّ على السراج الليل كلّه منهمكاً في رسم الخطط للأبله!

تبادل الرجلان نظرة طويلة. في مقلة الابن انقلب العجب إعجاباً. ثم مرحاً. وفي لحظة واحدة انطلق الرجلان في ضحك مكتوم، مريب؛ فيما كانت ستور الظلمة تزحف على الحقول المجاورة لتحتضن أشجار البستان!

## 3

في الوقت الذي وقف فيه محمد باشا القرمانلي يتطلّع إلى البحر من شرفة السراي ويتساءل عن سرّ توق سلالة آدم لخوض المجازفة، كان المارد الزنجي يعبر أسوار المدينة من جهة باب البحر، يهشّ أتاناً شهباء محمّلة ببرميلين ملآنين بالماء.

كانت الشمس قد بدّدت عتمة الفجر للتوّ، فتسكّع العسس يشرعون البوابات المهيبة التي تطوّق المدينة من الجهات الأربع كأنها تمائم خرافية أقامها المجهول في أزمان مجهولة لا لتحمي المدينة من كيد الغزاة، ولن لتجيرها من دسائس الجان الذين لا يروق لهم أن يسعوا ليفسدوا في الأرض إلا بحلول الظلمات.

وقد اعتاد العسس أن يستقبلوا في بواباتهم تلك فجر كل يوم بائع الماء الذي لم يبدُ يوماً أن هذا المخلوق الكريه الخلقة يمكن أن يختلف عن شبح من أشباح الأساطير الي تتربص بالمدينة آناء الليل فأبدع الأوّلون الحصون خصيصاً لاتقاء شرورها.

اكتأب أفق المدى المسربل باللون الأزرق المنتهك بين حين وآخر بالموج المتوّج بشيب الدهر، فزحفت على الشطوط سحب الضباب منذرةً باستسلام الخريف لغزوة الشتاء. تنفّس الشمال بريح الصقيع، فاحتجب قرص الشمس بأشتات الضباب التي انعقدت في غيوم كئيبة.

مارد المياه تلفّع أيضاً بالجرد المنسوج من أوبار الإبل بلونه الرمادي، كأنّه تنبّأ بهجمة الشتاء سلفاً. ولكن اللحاف لم يحجب في المارد سوى صدره وعجزيته، في حين ظلّ عارياً بركبتيه وساقيه المكشوفين من السروال. بلغ بدابته الشهباء ساحة الرخام. توقف في مواجهة قوس «ماركوس» متمتماً ببرطمة مجهولة كأنها رطانة أسلافه في الأدغال، أو ربما تعاويذ وثنية منسيّة ورثها عن أوطانه الأصلية. ثم انحرف بدابته يساراً ليسلك الشارع المؤدي إلى رحاب القنصلية الفرنسية. هناك زأر بصوت زعزع جدران الجوار: «هبوني قطعة

محبوب أهب لكم سرّ الحياة الدنيا! سعر البرميل بمحبوب واحد! من يبيعكم برميل الحياة مقابل قطعة نحاس غير درويش الماء؟!».

كتم أحد السابلة ضحكة. من شباك الأعالي أطلت طفلة. وراء ثقب أحد الأبواب استنكر صوت امرأة. عند باب القنصلية انتهره الحرس بخشونة مومِئاً له أن يتنحّى ليسلك الجانب الآخر من الشارع. أسدل اللحاف حول رأسه واندفع ليعترض سبيل البهيمة ويغيّر طريقها إلى جانب الشارع الآخر. ولكنه ما لبث أن عاد يهشّها إلى الجانب الأيسر ما أن اجتاز موقع العسس بخطوات. هناك قرع شبّاكاً. من الشباك أطلّ رأس أحد الخدم. ثم عاد فأوصد الشباك ليفتح ضلفة الباب، في حين انهمك البائع في استنزال برميلي الماء. خرج زنجي عجوز، ضئيل البدن، أشيب الفوذين، وتقدّم ليهمس في أذن المارد بعبارة مبهمة استجاب لها بائع الماء ببسمة غامضة.

## 4

داخل البيت الأنيق المشيّد بامتداد جدار القنصلية الفرنسية ساد هدوء مريب. في فناء البيت ارتفعت شجرة نخيل عالية. عبر الممر المؤدّي إلى الغرف مشى مارد المياه بخطوات إنسان يعرف ماذا يريد، ويدرك السبيل المؤدّي إلى البُغْيَة التي يريد، في حين تخلّف الخادم العجوز منشغلاً بمعاندة برميل الماء الذي اعترضته السقيفة فوقفت في سبيله حجر عثرة. في الخارج ناح الريح بفجيعة الفجاءة، فصفع المطر نوافذ الحجرة المطلّة على المرفأ في الجهة الشمالية. داخل هذه الحجرة حيث هيمن الصمت والظلام والرخاء أصاخ المارد السمع. في نهاية الركن الملاصق للجدار الشمالي سمع

شخيراً خفيفاً. حدق في العتمة فتبيّن المخدع المترف العريض الذي تظلّله ستارة شفّافة كأنّه خدر أميرة من أميرات ألف ليلة وليلة أو ما إليها من أساطير الأوّلين. حبس أنفاسه في صدره وخطا نحو المخدع الجليل خطوة، ثم خطوتين. توقّف ليتطلّع إلى الجرم الممدود على السرير الذي تخفيه غلالة الخيال فاكتشف أن الجرم ليس جرم مخلوق وحيد، ولكنه جرم مخلوقين ملتحمين في عناق حميم حتى كادا ينقلبان جسداً واحداً.

ابتسم. بلع لعابه بنهم. تقدّم من المخدع. حدّق في القرينين بمقلتين شرهتين حتى كادت المقلتان أن تفزّا من محجريهما. ذرف دمعتين من فرط التحديق. ثم ابتلع ريقه مرّة أخرى قبل أن يخرج من لحافه الصوفي الكئيب يدين مفلطحتين كمجرفتين هائلتين، موسّمتين بشقوق عميقة كفيلة بإخفاء بعض الزواحف أو الهوام الأخرى. أزاح الستارة الخيالية فوجدها لميسةً في نعومة خزّ خرافي. بل هي الخزّ الخرافي. في الفراش اشتمّ رائحة حادّة، كريهة، أصابته بدوار عابر. بجوار رأس الرجل تبيّن زجاجة مريبة من ذلك النوع الذي اعتاد أن يرى النصارى وبعض الوجهاء يحتسونه في خمّارة «ترافيرسو» فيلعب مفعولها برؤوسهم. كانت القارورة خاوية، ولكن لم يعد عسيراً أن يتبيّن قطرات السائل الذي مضى ينزّ من فوهتها بعد أن اعتادت حدقتاه على عتمة المكان. شيّع يديه المخيفتين فوق جسميهما، ولكن اليدين ظلتا معلّقتان فوق رأسيهما كأن هاتين المجرفتين الفظيعتين قد شلّتا. فقد أذهلت المارد سيماء الحسناء التي احتضنها الرجل بين يديه وقال في نفسه أن من حقّ ربّ هذا البيت أن يذهب

للقاء ربّه راضياً مرضياً بعد أن احتضن في الليل غانية بمثل هذا الجمال. ردّد في نفسه أيضاً قناعة قديمة لم يملّ يوماً من ترديدها بينه وبين نفسه تقول أنه إذا كان لهؤلاء السادة البلهاء من فضل على عبيد هذه الدنيا فهو فوزهم بالحسان من دون الناس جميعاً. وفيما عدا هذا الكنز فإنهم في واقع الأمر هم عبيد هذه الدنيا وليس معشر العبيد سوى سادة هذه الدنيا. فلماذا لا يجرّب اليوم أن يتذوّق طعم هذه الفاكهة الزقّوم التي لا يعرف لماذا حرّمها ربّ الأرباب على سلالات الخدم وخصّ بها الأسياد من دون الخلق جميعاً؟ لماذا لا يمدّ يده ليقطف ثمرة الفردوس بعد أن وضعتها الأقدار بين يديه؟ ألا يقال أن الأقدار تمنحنا فرصة تحقيق آمالنا مرّة واحدة، ولكنها لا تكرّر فتح هذا الباب مرّة أخرى أبداً؟

نزل بيديه على عنق الرجل فوجده هشّاً كأنه كوم من قشّ. غاصت يداه في العنق الرخو الشبيه بعمود من الجبن فحشرج الرجل حشرجة قصيرة قبل أن ينتفض بجرمه مرّتين، ثلاثاً، ثم همد. همد في أمدٍ خياليّ كأنه كان ينوي أن يموت. همد كأنه لم يخمد أنفاس مخلوقٍ حيّ، ولكنه خنق جثّة إنسان ميّت!

فرغ من القرين، والتفت ليتولّى أمر الحسناء. كانت ما تزال تهجع إلى جواره. بل كانت ما تزال تحتضن ذراعه اليسرى. كانت لا تدري بالطبع أنها تحتضن جثّة!

تطلّع إلى جيدها المصبوب من المرمر فتبيّن رغم أنف العتمة بشرتها الذهبية. تبيّن شفتيها المكتنزتين الشهيّتين المنفرجتين عن

أسنانٍ بيضاء مصفوفة بدقّة تتناسب مع امرأة لم تبلغ الثلاثين.
وجسدها؟

كان جسدها نصف عارٍ. بل هو عارٍ إلاّ من شرشفٍ أكثر شفافية من ستارة الخيال. ثدياها الثريّان المتوّجان بحلمتين بحجم قطعتي تمر يستلقيان باسترخاء فوق ذراع قرينها القتيل. رآها حلماً خالداً بعيد المنال برغم أنها صارت، لأوّل مرّة، في متناول اليد. الحلم الذي حققته له الأقدار اليوم وسوف لن تحقّقه له في الغد يقيناً. الحلم الذي عليه أن يناله آلان وليكن بعد ذلك ما يكون. الحلم الذي عليه أن يجنيه مقابل الأجر. الحلم الذي عليه أن ينتزعه الآن، في الحال، حتّى لو سلّموا رأسه لسيف الجلاّد في الغدّ.

تحسّس جسدها فوجده طريّاً كالزّبد، لميساً كقطعة حرير، دافئاً كرغيف خبز خرج للتوّ من جوف الفرن. فمن أين يأتي الأسياد بمثل هذه الأجساد؟ كيف يحصل هؤلاء البلهاء على مثل هذه النساء؟

تناول جسد القرين بين ذراعيه فوجده خفيفاً كأنه كوم من ريش. وضعه بجوار المخدع قبل أن يزحف ليجد نفسه إلى جوار الحسناء. احتواها بين ذراعيه وقبّلها في شفتيها. زفرت وأطلقت أنيناً. زفرت الأنفاس بسخاء قبل أن تطلق أنيناً. زفرت الأنفاس بسخاء قبل أن تطلق أنين انتشاء خرافي. تأوهت ثم تمتمت: «لطفاً يا سي حمد لطفاً!».

ولكن «سي حمد» المزعوم لم يتلطف هذه المرّة في معاملة جسدها لسبب بسيط وهو أن «سي حمد» كان قد قضى نحبه، ولم يبق لها إلاّ أن تقبل في أحضانها جلاّده!

لا يعرف كم من الوقت استغرق التحامه الجنوني بالحسناء. ما يعلمه أن طرقاً عنيفاً على الباب انتزعه من غيبوبته. انتزعه من غيبته. انتزعه من رحلته.

نهض ولكنه اكتشف أن المرأة هي السبب. اكتشف أن المرأة كانت تصرخ. كانت تصرخ لأنها كانت تنزف. كانت تتلوّى في المخدع وتنزف. مدّ يده ليكتم أنفاسها. مدّ يده ليسكتها إلى الأبد كما أسكت قرينها «سي حمد» منذ قليل. ولكن الطرق على الباب أربكه ففزّ.

فتح الشباك في نيّة للفرار، ولكن الباب انفتح فجأة ليدخل الخادم العجوز مرعوباً. صاح: «عجّل! عجّل! لأن عسس قنصل الفرنسيس بدأوا يتململون!».

لحظتها اطمأن. لحظتها عاد أدراجه ليكمل عمله. عاد أدراجه ليعجّل حقّاً. كانت الشقيّة تختنق من الفزع. تختنق من الوجع. تختنق من هول الكابوس. سقطت من المخدع. زحفت فوق البساط في طريقها إلى الباب وهي تحشرج بفحيح غريب. هناك أدركها. هناك التفّت حول جيدها كفّان خشنتان ممزّقتان بأفظع الشقوق التي يمكن لمخلوق أن يراها في كفّ مخلوق حتى أنّ أثرهما بقي مطبوعاً على جيد الحسناء اللميس!

## 5

يوم استقبل محمد باشا المسيو كولليه (GOULLET) قنصل فرنسا الجديد لدى المملكة، وأعرب له عن حاجته الماسّة لصداقة

فرنسا، علّق القنصل بعبارة خدشت حياء اللسان الدبلوماسي بقساوة غير قابلة للشكّ:

ـ يستحيل، يا سعادة الباشا، أن تجتمع صداقة فرنسا مع صداقة الحاشية في سلّة واحدة!

تطلّع إليه الباشا بدهشة يومها. تبادل مع ضيفه نظرة طويلة قبل أن يستدرك الباشا بابتسامة أنقذت الموقف. تساءل:

ـ من أين لضيفنا بهذا اليقين؟

أجاب القنصل بلهجة تحدٍّ:

ـ كل البراهين تشير إلى ذلك يا سعادة الباشا: مصرع رسولكم إلى جلالة الملك آخر هذه البراهين ولن يكون أخيرها!

ابتسم الباشا بمرارة. قال بذلك البرود الذي يليق بذوي السلطان برغم أنهم لا يفلحون في نيله إلاّ بعد الجهد الجهيد:

ـ أحمد بن كاهية طرف في مؤامرة!

ـ أخشى يا سعادة الباشا أن المؤامرة ليست مؤامرة أحمد كاهية، ولكنها مؤامرة تلك الفئة التي لا يروق لها ذهاب ابن كاهية رسولاً لجلالة ملك فرنسا!

غزت وجنتي الباشا سيماء شحوب. ولكنه اغتصب بسمة ماكرة قبل أن يقول:

ـ زيارة رسول المملكة الطرابلسية إلى جلالة ملك بلادكم عمل لا يضير أحداً في هذه البلاد.

ـ بل يضير الكثيرين يا سعادة الباشا!

تبادل الباشا مع ضيفه نظرة خاطفة. قال الباشا:

ـ لا أريد أن أقول أنه لن يضير أحداً؛ لأن كل الأفعال التي تنفع الأغلبية لا بدّ أن تسبّب ضرراً مّا لأقليّة مّا. وأن نقول في لغتنا «مصائب قوم عند قوم فوائد» هو المعنى نفسه فيما لو قلنا: «فوائد قومٍ عند قومٍ مصائب». برغم أننا لا نقول ذلك عادةً. ومشيئتي في هذه البلاد هي مشيئة الأغلبية، لأنّي لم أستصدر فرماناً واحداً لم ينل مباركة أعضاء الديوان عملاً بالوصيّة التي استزرعها المرحوم والدي!

ـ أحمد الأكبر كان فريد عصره. وفي بلادي ما زال الأخيار يتحدّثون عن شخصه بإكبار برغم أن النزاع بين بلدينا كثيراً ما بلغ الذروة في عهده. ولكن لا بدّ أن نفرّق في أحكامنا بين خلاف المنافع من جهة وبين الخلاف عندما يتعلّق الأمر بما اعتدنا أن نسمّيه في لغتنا الأرضية «حقيقة». وبرغم يقيني من صدق رغبتكم في توطيد الصداقة القديمة مع بلادي، وكذلك يقيني في حسن نوايا الأعيان الذين استصدروا هذا القرار في مجلس الشورى، إلاّ أن هذا كلّه لن يكون الكلمة الأخيرة في المسألة عندما يتسبّب قرار كهذا في نثر الملح على الجرح الموجع!

هتف الباشا:

ـ الجرح الموجع؟

ـ أقصد المنافع يا سعادة الباشا. ضرر كلّ منّا في كل ما يضير منفعتنا. أستطيع أن أذهب إلى أبعد فيما لو سمحتم لي فأقول أنّنا نحن لسنا نحن، يا سعادة الباشا، وما نحن سوى حفنة منافع!

تبادلا نظرة أخرى. انتظر المسيو «كوللّيه» طويلاً قبل أن يسمع جواب الباشا:

ـ لا أنكر أن في الديوان أنفار تعارض الصلح مع فرنسا لأسباب دينيّة. إنهم من تلك الفئة التي لا تريد أن تعترف بأن زمان الجهاد في سبيل الله قد ولّى، فتحاول أن تزجّ بنا في حروب لا حيلة لنا بها مع أمم النصارى وتنسى أن الجهاد الأكبر هو الجهاد ضد الأهواء وليس ضد الأغيار...

هبّ القنصل قائلاً:

ـ هذه الفئة هي أخطر الفئات على السلام بين بلدينا لا لأنها ما تزال تؤمن بالحرب كرسالة في سبيل الله، ولكن لأنها الفئة التي تتستّر بقناع الديانة لتخفي نواياها الحقيقية. لتخفي منافعها الحقيقية!

سكت القنصل فسكت الباشا أيضاً. ظلّ يعبث بحبيبات مسبحة في يده مطأطئاً. أخيراً قال:

ـ ولكني برغم ذلك أشكّ أن تتجاسر هذه الفئة على تدبير مكيدة لتوريط أحمد كاهية في مؤامرة من صنع الخيال. أم أن الظنون قد ساقتني بعيداً عن الصواب؟

نظر القنصل في عيني الباشا بمقلتيه العسليتين طويلاً. ابتسم لأول مرّة. قال:

ـ بل الظنون قد ذهبت بالباشا إلى عرين الحقيقية لأوّل مرّة!

سكت الباشا فأضاف المسيو «كولليه»:

ـ بل ظنوني تقول أن التخلّص من أحمد كاهية ما هو إلاّ المؤامرة الحقيقية التي بدأت بالفعل، ولكنها لم تنتهِ بعد!

شيّع الباشا إليه رأسه فرأى القنصل في عينيه حيرة قبل أن يقول:

ـ هل هناك أدلّة؟!

ـ كثيراً ما تكون الأدلّة في متناول أيدينا، ولكنّا نتجاهلها لأننا لا نريد أن نصدّقها!

تمتم الباشا:

ـ فهمت!

## 6

حدَّث محمّد باشا نفسه فقال أن قنصل فرنسا على حقّ. لأنّ لا خير في الحاشية. لا خير في كلّ حاشية فكيف بالحاشية التي ورثناها إرثاً؟ فكيف بالحاشية التي ورثناها مع العرش؟ رئيس الديوان العجوز (الذي ورثه أيضاً عن الأب) قال له أن الإرث من أوّله إلى آخره لعنة. لعنة سواء أكان مالاً أم عرشاً أم فوزاً. ولكنه لعنة مرّتين إذا كان هذا الإرث خدماً أم حَشَماً. لأن ولاء الأشياء لصاحبها الذي أبدعها لا لوارثها الذي نالها بالمجّان. أما إذا تعلّق الأمر بالأحياء فإن البليّة دائماً أعظم. فخير هؤلاء يذهب مع وليّ أمرهم الذي ذهب ولا يتبقّى لوارثهم سوى شرورهم. لهذا السبب نرى أخلاف الدنيا يستبدلون ميراث أسلافهم بأيّ ثمن. لأنهم لن يضمنوا فلاحهم (بل أنهم لن يضمنوا حياتهم) إن لم يفعلوا ذلك. وفي مرّة أخرى أسرّ له بما هو أعظم. في تلك المرّة أفشى له سرّاً يقول أن المبدأ الوحيد

الذي على الخلف أن يرثه عن السلف دون أن يستحي أو يستشعر الندم هو الوصيّة. قال له بالعبارة: «الأسلاف يخذلوننا يوم نجد أنفسنا وقد أورثونا ما ملكت أيديهم، ويكبروننا مرّة واحدة يوم يتركون لنا وراءهم الوصايا. لأن كل ما امتلك باليد هو حطام فانٍ. أمّا الوصيّة فهي عطيّة القلب. الوصيّة وحدها هبة الربّ!». كانت ملحمته عن الوصايا آخر وصيّة أسرّ بها إليه، لأن كفّ الإثم، لأن روح الملكية المبثوثة في كفّ كل فردٍ من أفراد الحاشية سرعان ما امتدّت إلى عنقه المطوّق بتجاعيد الشيخوخة لتكتم أنفاسه!

يومها أدرك أن اللعنة المسمّاة حاشية حيناً، وأعواناً حيناً آخر، وخلاّنا حيناً ثالثاً، وأقرباء حيناً رابعاً، ما هي إلاّ الورم الذي لا يخشى القوى التي تتهدّد نفوذها أو منافعها فحسب، ولكنها الورم الذي يخشى الحكمة أيضاً. بل اكتشف أنها لا تعادي شيئاً كما تناصب الحكمة العداء. منذ ذلك اليوم قرّر أن يتمرّد على نفسه ويفعل شيئاً. قرّر أن ينفض غبار التكيّة ويتولّى الأمر قبل أن يفوت الأوان. صمّم منذ ذلك اليوم أن يغيّر ما بنفسه لكي يكون أهلاً لتغيير ما بقومه. قرّر أن يطهّر صفوفه ويستبدل ثوب اللعنة الذي ورثه مدسوساً في ثنايا العرش الذي ورثه عن أبيه. قرّر ولم يتبقَّ له إلاّ أن يبدأ. ولكن السؤال هو: من أين يبدأ؟ بل بمن يبدأ؟ فهو لا يستطيع أن يلقي بهذه التركة الشنيعة في البحر بين يوم وليلة. لا يستطيع لسبب بسيط وهو أنها تستشري في بدن المملكة كلّه كأنها أخبث أجناس الأورام. وعندما وشوش في أذنه أقرب الأقرباء (ابن العمّ والصهر ورئيس بحريّته) بنيّة آل كاهية في التآمر لتنصيب أخيه محمود

على العرش وخلع بيعته هو، قدح في قلبه زند الإلهام بنبوءة تقول أن الأوان قد جاء لتصفية الحساب مع هذه الشرذمة الكريهة التي وجدها تطوّق عنقه كالأفعوان وتصيبه بالدوار والغثيان منذ أوّل يوم جلس فيه على العرش. ولكن حديثه مع القنصل الفرنسي (هذا الداهية الذي لم تُخفَ عليه الخافية مثله مثل كل هؤلاء النصارى الدهاة) فضح له أنه سار في الطريق الخطأ منذ الضربة الأولى. لأن ما ظنّه مكيدة مدبّرة ضدّ عرشه كان مكيدة مدبّرة ضدّ مكيدته هو. كان مكيدة مدبّرة من قبل الأخطبوط ضد نيّته هو. فكيف أوقعه ابن الزانية صهره ورئيس بحريته وابن عمّه في الشرَك قبل أن يفلح هو في نصب الشرَك؟ هذا يعني أن من استحقّ الشنق (أو الخنق بيد ذلك المسخ المأجور) ليس أحمد حسن كاهية، ولكنه الناب المسموم الذي أوحى له بالأمر، ووجّه له الطعنة في الظهر!

## 7

في ضاحية المنشية، في أحضان بستان الباشا الصيفي، سأل الباشا البستاني العجوز:

ـ أصدقني القول يا عمّي سليمان: لو قُدّر لك أن تجلس مكاني فأي أعواني تصدّق؟

أجاب العجوز كمن يقرأ الجواب مكتوباً في قرطاس:

ـ أجارني الله من قَدَرٍ يجلسني مكان مولاي!

ابتسم الباشا كأنه كان ينتظر هذا الجواب. تطلّع إلى شعاف النخل. قال:

ـ الأقدار سلطان أعمى كما يقال، وعندما تشاء فإنها لا تستشير ولا تجير!

تطلّع إليه العجوز أيضاً خفيةً. كان يجوس بالجوار ليطهّر الزروع من خبيث النّبوت. ينحني حيناً وينتصب حيناً بخفّةٍ لا تتناسب مع شيخوخته. قال:

ـ إذا اقترفت الأقدار هذه الخطيئة فإني لن أصدق أحداً ممن يسمّيهم مولاي أعواناً!

ـ لماذا؟

ـ لأن ليس من طبع الأعوان أن يقولوا الصدق للسلطان!

ـ حقّاً؟

ـ خُلق الأعوان، يا مولاي، كي يزيّنوا لجناب السلطان الأكذوبة لا أن يقولوا الحقيقة!

نفث الجنوب أنفاساً صحراوية صيفية فتغنّت قمم الأشجار بلحنٍ مجهول. اعتدل الباشا في جلسته على الكرسي المحبوك من أعوادٍ مجهولة مستوردة من بلدان ما وراء البحار. قال:

ـ إذا لم أسمع الحقيقة من ألسنة الأعوان فمن لي أن أسمع؟

ـ يستطيع مولاي أن يسمع، ولكن ليس عليه أن يصدّق ما يسمع. لأن كلنا يعلم أن الحاشية وُجدت كي تحجب لا أن تكشف.

سكت الباشا. تطلّع إلى شعاف النخل مرّة أخرى. قال:

ـ أورثني الوالد إنساناً واحداً أصدقني القول، ولكنهم قتلوه دون أن أعرف لماذا.

ـ كنت على يقين أنهم سيفعلون ذلك يا مولاي.

تبدّى في مقلة الباشا فضول. تساءل:

ـ لماذا عليهم أن يقتلوه؟

ـ لأنهم لن يستطيعوا أن يحكموا إن لم يستبعدوه.

ـ هل قلت «يحكموا»؟

ـ بلى!

ـ ظننت أني أنا من يحكم، لا هم.

ابتسم العجوز لأوّل مرّةٍ فكشف عن فم خاوٍ من الأسنان. انكبّ على الأرض ليجتثّ نبتةً ضارّةً قبل أن يقول:

ـ بهذا الظنّ يحسن مولاي بالأعوان ظنّاً لم يستحقّوه يوماً. السلطان جُبّة المُلْك يا مولاي، أمّا حُجّاب السلطان فبطانة المُلْك. هذا ما يقال من قديم الزمان.

ردّد الباشا:

ـ السلطان جبّة المُلْك، وحُجّاب السلطان بطانة المُلك!

ولكن البستاني، أضاف كأنه استعار لسان إنسانٍ آخر لم يمتلكه يوماً:

ـ ومولاي يعلم أن الجبّة ما هي إلاّ مظهر، أمّا البطانة فهي باطن. البطانة جوهر!

جسارة اللسان ذكّرت الباشا بما تردّد من انتماء البستاني إلى إحدى الطرق الصوفية. وقيل أنه شوهد مراراً وهو يجوب دروب المنشية في ليالي الجمعة برفقة دراويش الطريقة العيساوية أو القادرية مؤدياً شعائر ما يسمّيه هؤلاء بـ«الحضرة». فهل حلّت فيه روح

الطريقة الآن عندما نطق بهذه العبارة الموجعة؟ ألا يقال أن الحقيقة لا تجري إلاّ على ألسنة الدراويش؟ ألا يقال أن الحكمة في فم المجذوب (أو المجنون) نبوءة؟ والحقّ أنه لم يستجوب البستاني منذ البداية إلاّ ليقينه بأنه طفل. إلاّ ليقينه بأنه يحمل في جوفه براءة لا تُقارن إلاّ ببراءة أولئك الأطفال الذين لا يروق للقدماء إلاّ أن يستنطقوهم عندما يقرّرون الفوز بنبوءة.

تساءل:

ـ إذا كان الأمر كما تقول فماذا عليّ أن أفعل كي أفلح؟

أجاب البستاني بلا تردّد:

ـ لا تفعل شيئاً!

ـ ماذا؟

ـ لماذا على مولاي أن يذهب وراء الحقيقة بعيداً إذا كان مولاي يحمل حقيقته في قلبه؟

ماذا تقول؟

ـ أردت أن أقول أن على مولاي أن يستشير قلبه لا قلوب الأغيار!

ـ هل أستطيع أن أجعل من قلبي معيناً؟

ـ بل أعواناً!

استفهم الباشا بإيماءة فأضاف العجوز:

ـ بالخلوة!

ثم أضاف وهو ينكبّ على الزرع:

ـ لولا الخلوة لما أفلح سلفك القرمانلي في أن يصير أميراً للمؤمنين وأحمداً أكبر!

تابعه الباشا وهو يركع أرضاً بجسده النحاسيّ النحيل حتى يكاد يقبّل الترباء المكسوّة بضروب العشب، ثم ينتصب باستعلاء ليشيّع رأساً مستوراً بطربوش أحمر كأنه يتطلّع إلى السماء بسيماء تفضح متعةً خفيّة كأنها جنساً من صلاة. أمّا ركبتاه العاريتان من سروالٍ مرفوع إلى أعلى فكانتا ملوّثتان بأوحال طين طازج.

على شفتي الباشا ارتسمت بسمة غامضة، ولكنه لم ينبس.

## 8

ـ هبوني محبوباً أهبكم عجباً خلق الله منه كل شيء حيّ!

كرّر المارد صيحته مرّتين ما أن دخل الساحة المواجهة لسجن النصارى في فجر ذلك اليوم، ثم سار عبر زقاق ضيّق أفضى إلى شارع مسدود بسبب الزحام. كان السابلة يتدافعون بالمناكب. بعضهم يتنابز بالألقاب بأصوات عالية. وبعضهم الآخر يلعن اللئيم الرجيم ويدعو الخلق للصلاة على خاتم المرسلين. في حين جاهد فريق ثالث لفضّ النزاع بالتي هي أحسن؛ فما كان من بائع الماء إلاّ أن انتهز الفرصة ليترك الدّابة في زقاق جانبي ويتسلّل إلى بيت مجاور ناصع الجدران، مطوّق بسور تتبدّى في ذروته أشجار النخيل. حاول تسلّق السور عند نهايته من جهة البحر، ولكنه أخفق. تطلّع إلى أعلى لتقدير الارتفاع. عاد على عقبيه عبر إلى الزقاق الجانبي حيث استبقى البهيمة المحمّلة ببرميلي المياه. ولكن جواداً جموحاً اعترض

سبيله في اللحظة التي أدرك فيها زاوية الجدار حيث ينتهي بنيان سجن النصارى. انتهره الفارس الذي يمتطي الجواد بصفة نابية ممهورة بلقب «عبد». تمتم بعبارات الامتنان كما اعتاد أن يفعل دائماً عندما يسمع شتائم القوم الممهورة بلقب «عبد». بل توّج عبارات الاعتذار بانحناءة إكبار هذه المرّة، لأن صاحب الفرس لم يكن سوى أحد أفراد الشُّرَط الذين هرعوا إلى مكان الشجار. وقد لوّح في وجهه بسوطٍ في يده، ولكن اللسان الشره لم ينله برغم أنه سمع هسيسه الموجع بوضوح في اللحظة التي ارتدّ فيها برأسه إلى الوراء. وقف في الركن وبدأ يرتجف. ارتجف فزعاً من صوت السوط لأنه لم يخف شيئاً في دنياه كلها كما خاف من أصوات السياط التي مزّقت بدنه بأيدي السادة منذ جاءت به القافلة التجارية من أوطان الأدغال مكبّلاً بالأغلال وهو ما يزال صبيّاً. وإذا شاء الاعتراف بالحقّ فإن ملاحقة السياط لجلدته لم تبدأ مع مسيرته لعبور الصحراء، ولكنها بدأت بعد مقتل أبيه على يد رجال القبائل المعادية فدخل بيتهم رجل آخر قال له أنه الأب الجديد قبل أن يتسلّل ليتقاسم الفراش مع أمّه. حدث ذلك قبل أن تتيبّس عظام الأب الحقيقي في قبره فقرّر الفرار. فرّ من بيت الأب المزوّر طلباً لأحضان الأب الذي غاب ظنّاً منه أن الآباء يمكن أن يتغيّبوا عن أبنائهم، ولكنهم لا يختفون. ظنّ كما ظن كل صغار القبيلة أن من حقّ الآباء أن يخرجوا في طلب الطرائد، أو لصدّ الغزاة، أو للاشتراك في الحملات ضد القبائل المعادية، ولكن ليس من حقّهم أن يهاجروا. ظنّ ذلك لأن هذا ما تقوله الأمّهات أيضاً. لأن هذا ما يقوله الكبار أيضاً. ولكن اقتحام رجل الأغراب إلى مخدع الأم كذّب ظنونه وأفقده صوابه

ففرّ. ولكن إلى أين المفرّ؟ ففي الأدغال تسرح الوحوش وتزحف الثعابين، وفي الخلاء تدبّ الأشباح ليلاً وينوب عنها الظمأ نهاراً. ولم يبق له خيار غير الالتحاق بقوافل التجّار التي تقبل من الشمال المجهول طلباً لهباء التبر وترحل بأحمالها عائدةً إلى بلاد المجهول الذي أقبلت منه. هذا الشمال الذي تروي القبيلة عنه الأساطير فتقول أنه أرض ربّ الأرباب «أبيبي» العظيم. فلماذا لا يجرّب حظّه ويذهب ليحيا في رحاب ربّ الأرباب؟ ذهب في المرّة الأولى إلى أحد رجال القافلة ووضع بين يديه رقبته بلا مقابل. استعان برطانة لسانه وبرطانات يديه وعينيه وحتى حاجبيه ليقول له أنه يريد أن يخدمه بيديه وقدميه وكل عضلة في بدنه بالمجّان. ليس بالمجّان تماماً ولكن بمقابل صغير لا يعدّ مقابلاً: أن يحمله إلى دياره. أن يذهب به إلى أرض رب الأرباب حيث لا تتقاتل القبائل نزاعاً على فرائس القردة، ولا يختفي الآباء ليتركوا وراءهم الأبناء وأمّهات الأبناء، ولا يهلك الناس بسبب المجاعات أو الأوبئة.

ولكن الرجل شكّ في أمره فأفشى سرّه لرفيقه. ورفيقه أخبر أحد رجال القبيلة. ورجل القبيلة كشف نواياه لأبيه المزعوم. فما كان من أب الزور هذا إلاّ أن شدّه إلى شجرة وسلخ جلده بالسوط. سلخ جلده حتّى نزف منه الدم السخيّ. فكان ذلك أول عهد له مع هذا الحيوان الكريه الذي يسمّيه الناس «سوطاً». ولو جرّبه هؤلاء الأغبياء الذين أطلقوا عليه هذا النعت لأسموه «شعلة نار» لا السوط!

ولكنه لم ييأس. بل لم تزده تجربته الدموية مع سوط الأب

المزيّف سوى إصراراً على الخروج. وليس عليه اليوم أن ينكر أنه أخفق في محاولته الثانية أيضاً فتلقّى حريقاً جديداً على منكبيه من لسان النار ذاك، ولكنه أفلح في المرّة الثالثة. عبر الصحراء في ركاب قافلة أخرى مصحوباً بطابور من أبناء جلدته الذين باعهم ذويهم (أو ربما باعوا أنفسهم طوعاً مثله تماماً) وساروا في طريق الشمال المؤدّي إلى أرض الأرباب. أقنع صاحب قافلة فأخفاه الداهية في جوال التمور ولم يخرجه من ظلمات ذلك الكيس إلا بعد أن اجتازت القافلة أوطان الأدغال ودخلت ربوع الصحراء المغمورة بالسراب. وقد ذاق على يدي صاحب القافلة سياطاً أنسته كل ما ذاقه قبل ذلك اليوم من سياط. ولكنه احتمل حريق السياط إلى أن عبر حريق الصحراء. في الواحة الجبلية التي تشرف على برّ الربّ نهض في الليل وقبض روح صاحب القافلة. تسلّل إلى مرقده في العراء وخنقه بيدين ظامئتين إلى الانتقام. كتم أنفاسه بيدين خيّل له أنهما لم تخلقا من لحم ودم (لأن الدم فيهما نزف بألسنة السياط) ولكنهما صُبّتا من انتقام. ويبدو أن هذا هو السبب الذي جعله يكتم أنفاس صاحب السيادة باليسر الذي يسحق فيه الإنسان حشرة!

تلبّس عتمات السَّحَر ونزل الجبل.

نزل السهل المؤدّي إلى الفردوس فغزت منخريه الأنفاس.

غزت منخريه رائحة أرض الربّ المشبعة بالرطوبة والملح والغموض ورذاذ المجهول. هناك، في أسوار المدينة، كُتب له أن يحيا ليواصل سيرة إنسانٍ لم يحسن سوى استخدام يديه لتجسيد ملحمة انتقام صارت له حياة، صارت له فردوساً، صارت له أرضاً،

برغم أنها لم يُقدّر لها يوماً أن تنقلب أرض الرّبّ مثلها في ذلك مثل كل أرض!

## 9

في قلب المدينة، بساحة «الأعمدة الأربع» يقع مقهى «الأعمدة» الذي يرتاده أخيار المجتمع الطرابلسي: أعيان المدينة، كبار التجّار، ضبّاط الجيش بجناحيه البحري والبرّي. تنتشر كراسيه الخشبية حول موائد خشبية أيضاً لا داخل المقهى وحسب، ولكن في الخارج أيضاً حيث تنتصب الأعمدة المرمرية المستجلبة من آثار لبدة الكبرى بلونها الأخضر النادر، ونمنمات قممها التي تشيّع الأبنية، وسيقانها الصقيلة التي أعجزت الدهر. كل عمود من هذا الرباع يحتلّ في الأبنية ركناً لينهي زحف الجدران ليصنع لها من هامته التاريخية المكابرة سدّاً مانعاً فيتفضّأ المكان في ساحة واسعة مفتوحة على شوارع أربع. في ملتقى الطرق الأربعة هذا يروق للسابلة أيضاً أن يلتقوا. وكي لا يلتقوا ليفترقوا على عادة كلّ سابلة فلا بد أن يبدعوا ليهتدوا إلى حيلة تستبقيهم ليرتووا من كلم قُدّر لهم بالسليقة ألا يرتووا منه يوماً، وليرتووا أيضاً من سمعٍ قُدِّر لهم بالسليقة أيضاً ألا يرتووا منه يوماً. لأنه قد ورد منذ القِدم في نواميس الأمم التي خلت أن اللسان عضلة لا ترتوي من الكلم، والأذن لا ترتوي من سمع، والعين لا ترتوي من نظر! وكما يلد الجبل فأراً إذا تمخّض، فكذلك ليس بوسع الناس أن يبدعوا غير المقهى مهما تفوّقوا على أنفسهم إذا اجتهدوا. وبرغم أن المقهى ليس بالأعجوبة التي تدهش، ولا باللغز الذي يستهوي، إلاّ أنه صار لهم الاختراع الذي أرضى غرورهم، علاوة

على قدرته على تسليتهم، بل ولقدرته على أن ينسيهم الموت الذي يروق لهم أن يطلقوا عليه تارة اسم «الهموم» من باب التورية، كما يروق لهم أن يطلقوا عليه تارة أخرى اسم: «الزمان» من باب الاستعارة أيضاً!

## 10

في مفترق الطرق هذا حيث تستلقي الشوارع لتذهب إلى أركان المدينة الأربع (وربما أركان الدنيا الأربع)، في زاوية المقهى المطلّة على الساحة المتوّجة بأعمدة التاريخ الأربع، جلس بعد ظهيرة يوم صيفي قائظ من عام 1746م رجلان أنيقان في مظهرهما، صارمان في ملامحهما، متقاربان في عمريهما، وإن اختلفا في لون بشرتهما، وفي حجم جرميهما، وحتّى في تكوين وجهيهما. أحدهما أطول قامة، وأكثر نحولاً، وثانيهما أكثر بدانة وأقصر قامة. أوّلهما أكثر سمرة، وثانيهما أكثر بياضاً. أوّلهما مستدير الوجه، مستدير العينين أيضاً. وثانيهما عريض الوجه، واسع العينين. أوّلهما طويل الأنف، مفلفل الشعر، يغوص طربوشه الأحمر الصغير في دغل الشعر المفلفل فيبدو بهذه الهيئة مضحكاً. أمّا ثانيهما فأفطس الأنف قليلاً، شعر رأسه مجهول الهويّة، لأن طربوشه الناصع المنسوج من الكتّان يخفي شعر رأسه دوماً إلى حدّ أيقن فيه خدم المقهى بأنه أصلع، وربما أقرع. وبرغم ذلك فلا يبدو للناس مضحكاً كقرينه، بل وقوراً. هذا برغم أن روّاد المقهى كثيراً ما يتندّرون ليعجبوا من سخرية الطبيعة التي وهبت لأوّلهما الذي دلّت بشرته السمراء على إنتمائه لعرق الزنج أنفاً مستقيماً أليق بثانيهما ببشرته البيضاء، في حين

ثبّتت في وجه ثانيهما أنفاً أفطس أنسب لسلالة أوّلهما. ولم يفت الخبثاء أن يعلقوا على هذه المفارقة بالقول أن أمّنا الطبيعة لا تفعل ذلك من باب العبث أو لتسلّي أبناءها الذين لا يسلّيهم شيء، ولكنها تفعل ذلك تجنّباً لإبداع الكمال الذي لم يكن يوماً من نصيب البشر، ولكنه حكر على الأرباب وحدهم!

مفارقة أخرى توّجت سيماء الرجلين: فشارب أوّلهما الذي تجري في عروقه دماء أمم السواد كما يبرهن اللّون متوّج أعلى الشفتين بشارب طويل سبط الشعر يسترسل على الجانبين على شكل قوسين يطوّقان الفم ليستوليا على الذقن، فيتبدّى شارباً مستعاراً بالمقارنة مع شعر صاحبه المفلفل. أمّا رفيقه فيكتفي بلحية ملفّقة من نتوف شعر أكرت لا يتناسب مع لون بشرته ولا مع سيماء سلالته. وهي مفارقة أخرى لم يفت روّاد المقهى اللؤماء أن يتندّروا بها ويضيفوها إلى قائمة المفارقات الأخرى.

واللباس؟

لباس الرجلين اختلف أيضاً. فإذا كان لباس أهل المدن (المتمثّل في الصديري المنمنم المغمور بجبّة منمنمة أيضاً مع السروال المطرّز بعناية) هو ما راق لصاحب البشرة السمراء، فإن ثياب أهل الأرياف (المتمثّلة في الثوب الفضفاض الناصع البياض الملفوف بالعباءة البيضاء أيضاً مع سروال واسع الجوف ضيّق العنق) كان هو الهندام الذي راق للجليس الثاني الذي تجري في عروقه دماء الأمم البيضاء.

وهويّتهما؟

الغريب أن الكلّ يجهل هويّة الرجلين الحقيقية. وعندما يقول

البعض أنهما من طبقة التجّار ينفي فريق ثانٍ هذا الزعم ليؤكّد أنهما من أعيان المدينة الذين ورثوا أموالاً طائلة عن أسلافهم، وربما منّت عليهم الحظوظ بكنوز دفينة تحت الأرض كثيراً ما عثر عليها حمقى كثيرون أذاعوا سرّها ففقدوها كما هو الحال لامع كنوز هذه المدينة العريقة وحدها، ولكن مع كنوز كل الدنيا. هذا في حين ينفي آخرون هذه الظنون ليقولوا أنهما من أهل الدواخل الأكابر الذين نزحوا إلى المدينة يوماً مّا لسببٍ مّا. ولكن ثمّة من طعن في هذا الافتراض أيضاً ليقول أنهما ليسا سوى جاسوسين من جواسيس آل القرمانلي الذين لم يكونوا ليفلحوا في الاحتفاظ بالسلطان كل هذا الزمان لو لم يلجأوا لاستخدام كل من هبّ ودبّ في جلب الأنباء إلى أسماعهم سواء أكان هؤلاء باعةً أم أشياخاً أم أعياناً أم دراويشاً أم معاقين يحترفون التسوّل. وقد ذهب الحدس ببعض الفضوليين إلى القول بأنهما جاسوسان حقّاً، ولكنهما لا يدينان بالولاء لآل القرمانلي، بل إلى سلطان الآستانة الذي دسّهما في قلب المدينة ليستعين بهما عند الحاجة في حبك دسيسة هنا أو تدبير مكيدة هناك عندما تقتضي الحاجة.

وعلّ أكثر هذه الافتراضات تطرّفاً ما يردّده البعض من انتماء هذين المخلوقين الغامضين إلى سلالة الجنّ! وبرهن هؤلاء على زعمهم بغرابة أطوارهما. فهما يظهران فجاءةً ليختفيا فجاءة. تلدهما الأزقة في أوقات معلومة لتخفيهما الأزقّة ما أن يغادرا ساحة الأعمدة الأربع دون أن يعلم أحد يوماً إلى أين تقودهما السبل، ولا في أي بيت من بيوت المدينة يبيتان. إنهما يتواريان كما يستظهران، بل

ينقشعان، لأنهما شبحان من أشباح الخفاء يتنكران في جرمي إنسيين. وليس أدلّ على ذلك (في رأي هذه الفئة) من ميعاد ظهورهما في المقهى الذي يسبق الغروب. وهو الوقت الأثير لدى أمم الجنّ في الخروج من قماقمها والتبدّي بمظهر الخلق حسب حجج أولئك السحرة الذين أقبلوا على المدينة من مملكة مرّاكش سعياً وراء الكنوز، فطاب لهم المقام في رحابها ليبيعوا لأهلها تعاويذهم التي وإن أخفقت في انتزاع الكنوز من قبضة الجنّ إلاّ أنها كثيراً ما أفلحت في استئصال الجنّ أنفسهم من بطون المسكونين المصابين بالمسّ!

## 11

في الساعات التي تهامس فيها أهل المدينة بنبأ العثور على ابن شعبان بك صهر الباشا وابن عمّه مقتولاً خنقاً بيد فاعل مجهول هو وابنه في بيتهما الكائن بجوار سجن النصارى، كان الرجلان الغامضان يقبلان على المقهى قبيل الغروب ليأخذا مكانهما التقليدي على الطاولة الخشبية المستديرة المطلّة على ساحة الأعمدة الأربع.

كانت الشمس قد توارت خلف الأبنية في رحلتها الخالدة نحو الغرب تاركةً وراءها في الأفق مسوحاً قانية تعد بيومٍ أشد قيظاً في الغد.

أقبل النادل على الضيفين باسماً فاكتفى صاحب البشرة الكئيبة بتحيته ببسمة مماثلة قبل أن يومىء له بإشارة ذات معنى، فما كان من النادل إلاّ أن ردّد دون أن تفارق الابتسامة الغامضة شفتيه الغليظتين:

ـ قهوة كل يوم؟

غمز له الضيف بعينه فالتفت إلى ضيفه الثاني الذي غمز له بعينه أيضاً فردّد النادل:

ـ فهمت. قهوة كل يوم أيضاً!

ثم استدار على عقبيه ليقول صاحب الطربوش الأحمر المغمور في دغل الشعر المفلفل:

ـ لا أفهم لماذا يصرّ أوباش هذا المقهى بإزعاجنا كل مرّة بأسئلتهم السخيفة ذاتها برغم علمهم بأننا لسنا من أصحاب الأهواء الذين لا يعرفون ماذا يريدون، ولا يقنعون بما يطلبون. أم أننا خنّا يوماً عهداً قطعناه على أنفسنا وطلبنا شاياً بدل القهوة المعهودة؟

ابتسم صاحب القلنسوة البيضاء وهو يتطلّع إلى الأفق المغمور بوسم المغيب قبل أن يجيب:

ـ إذا تذكّرنا بأن ثمّة قهوة معهودة وأخرى غير معهودة فلا يجب أن نشتكي أو نلوم.

استنكر صاحب الطربوش المغمور في دغيل الشعر المفلفل:

ـ هل تريد أن تقول أن السرّ في قطرات الترياق؟

استهجن صاحب البشرة البيضاء:

ـ ما تسمّيه أنت «قطرات ترياق» يسمّيه الأغيار «قطرات داء»!

ـ ما ضرّ الأوباش أن يحتسي الإنسان سمّاً إذا كان يجد فيه الشفاء؟

ـ هذه لغة لن تروق للزبانية الذين نصّبوا من أنفسهم خليفة للربّ فاحترس!

زفر صاحب الطربوش الأحمر بضيق ولفظ سبّة في حين أضاف الجليس:

ـ ولكن ما يروق لي أن روحهم لم تخلُ يوماً من مرح: ألا ترى أنهم يتسامحون معنا عندما يدفعوننا للذهاب إلى مكانٍ آخر يطلقون عليه اسم «خمّارة» إذا شئنا أن نتعاطى ما تسمّيه أنت «قطرات الترياق»؟

هتف قرينه الأسمر:

ـ هذا ليس مرحاً ولا تسامحاً، ولكنه خبث في خبث!

ـ لماذا؟

ـ لأن ذكر هذا الاسم يقشعر له البدن.

ـ لا فردوس بلا ثمن!

ـ إنهم يوسّموننا بالعار عندما يزجّون بنا في دهليز هذا الاسم الفظيع!

ـ أظنّ أن من حقهم أن يفعلوا ذلك لكي نُظهر ما لا يجب أن نخفي!

ـ نظهر ما لا يجب أن نخفي؟

ـ حظر الإخفاء أقصر الطرق لإرضاء الربّ. الإظهار عربون التقوى. إن شريعتهم تقول: «لا يجب الوثوق في المخلوق الذي يُخفي!».

ـ عليهم اللعنة!

ولكن صاحب البياض أضاف كأنه يحدّث نفسه لا جليسه:

ـ ما يقال عن الخمّارة يقال عن الماخور!

ـ ماذا تقول!

ـ إذا طلبتَ اللذّات فليس عليك أن تتسلّل إلى دار الجار في غيبته، ولكن عليك أن تذهب وراءها في بيت كُتب عليه بالخطّ الكوفي: «بيت الدعارة»، أو ربّما «الماخور» إذا شاءوا أن يحسّنوا ألفاظهم!

هتف الجليس:

ـ أرأيت؟ لا بدّ أن يجلّلوك بالعار كي تقضي وطرك!

ـ يجب أن نجد لهم العذر!

ـ العذر؟

ـ رسالتهم أعسر مما نتصوّر!

ـ رسالتهم؟

ـ إنهم يريدون أن يتقنوا عملهم أيضاً. إنهم يريدون أن ينبهوك كي تستيقظ من غفلتك وتعلم أن ما تفعله عمل خالٍ من البطولة.

ـ فلتجرنا الأقدار من البطولة! نحن أمّة تطلب الأُنس ولا شأن لها لا بالبطولة ولا بالفضيلة.

ـ أرأيت؟ إنهم حرّاس فضيلة، فاحترس!

ـ عليهم اللعنة!

ـ دعنا الآن من الهراء وحدثني عن آخر فصول الملهاة!

زفر صاحب الطربوش الأحمر في اللحظة التي أقبل فيها النادل يحمل فنجاني القهوة. وضعهما على المائدة الخشبية، ثم غمز بعينه غمزةً ذات معنى قبل أن ينصرف.

رشف صاحب الطربوش الأحمر أوّلاً، ثم تبعه جليسه أيضاً.

دمدم صاحب اللون الأكثر كآبة بلحنٍ غريب فابتسم له رفيقه. أومأ له مشجّعاً، ولكنه تكلّم بآخر أنباء الملهاة، كما أسماها قرينه، بدل أن يترنّم بلحن حنينه:

ـ المسكينان هلكا خنقاً كما تعلم!

ـ أعلم!

ـ ماتا بذات الكفّ التي لا يقطعها السيف، ولا تحطمها الهراوة، ولا تسحقها الصخرة!

ـ أعوذ بالله!

ـ هلك المسكينان كما هلك آل كاهية وكما هلك قبلهم خلق كثير وكما سيهلك آخرون إذا لم يوضع الحدّ للكفّ المنسوجة من خيوط الثأر!

هيمن صمت الغروب. في المقهى أيضاً ساد سكون مفاجىء. انفضّ رواد المقهى ليدركوا صلاة المغرب في جامع الباشا. بعد قليل ارتفع الآذان من مئذنة جامع درغوت. ثم تنادت الصوامع كلها في آنٍ معاً. قال صاحب البياض:

ـ أخشى ما أخشاه أن ينقلب السّحر على الساحر!

رمقه الجليس بارتياب قبل أن يتساءل:

ـ هل تقصد الباشا؟

أومأ صاحب البياض بالإيجاب. قال الجليس:

ـ إذا لم يهتدوا إلى سرّ اليد التي تميت فأخشى أن زمناً سيأتي لن يجدوا فيه اليد التي تُحيي!

ـ ولكن كيف سيهتدون إلى سرّ الكفّ؟

تبادل مع جليسه نظرة. قال صاحب الطربوش الأحمر:

ـ ليس علينا أن نفشي السرّ قبل أن تفلح اليد في تطهير المدينة!

ـ كثيراً ما أتساءل عمّا إذا كنّا معنيين بشئون هذه المدينة حقّاً!

حاججه القرين:

ـ لا تنسَ أننا في هذه المدينة نحيا.

حدجه صاحب القلنسوة البيضاء بشكّ. لاذ بالصمت لحظات قبل أن يقول:

ـ الباشا في وضع لا يحسد عليه: إذا لم يقْتل فسوف يُقتل!

ـ لم يتسلّط إلاّ بخياره.

ـ لا أعرف ما الذي يدفع الناس لأن يحكموا!

ـ لأنهم يريدون أن ينتحلوا دور الربّ!

ـ هيهات!

في الزقاق المجاور انطلقت زغرودة ابتهاجاً بإعلان خطبة، وربّما بنبأ سعيد طال انتظاره، وربّما احتفالاً بوصول عزيز غاب عن الديار طويلاً.

تساءل صاحب البياض:

ـ هل تعتقد أنه سيفلح في حربه ضد الأعداء؟

ـ هذا يعتمد على ما يتمتّع به من دهاء، لأنه ما زال بالنسبة لنا كنزاً مخفياً.

ـ يقال أن ولد كاهية الأكبر يجنّد أتباعاً من الأتراك في مصر، وولده الأصغر يستقطب فلول القبائل الساخطة سرّاً للهجوم بها على طرابلس من تونس.

عاد صاحب الطربوش الأحمر يرتشف من قهوته ليروّض لحنه من جديد. قال فجأة:

ـ ولكن مداواة داء الباطن دائماً أعسر.

ـ صدقت. إذا تمكّن من ترويض العصابة الظمأى لكنوز البحر فلا خوف عليه.

ـ في النهاية ما نحن سوى ظلال، والحكم حكم القدر.

قالها صاحب الشعر المفلفل قبل أن يعود للترنّم بلحن الشجن.

## 12

يوم استصدر مجلس الديوان الفرمان الدّاعي لاستئناف الغزوات البحرية شلّت الدهشة ألسنة الكثيرين. فلم يتوقّع أحد (لا من هواة السياسة ولا من أصحاب السبيل) أن ينتكس صاحب الغلبة الذي حقّق انتصارات باهرة ليعود من منتصف الطريق على عقبيه؛ حتّى أن بعض الخبثاء شبّه عمل الباشا يومها بعمل هانيبال عندما سحق جيوش روما في معركة «كان» الشهيرة، وبدل أن يزحف ليحتلّ

المدينة ذهب ليتسكّع بجيشه في الأنحاء دون أن يدري أنه بهذا الفعل الطائش قد فوّت على نفسه تلك الفرصة الذهبية التي يروق للأقدار أن تهبها لكلّ إنسان، فإن أحسن استثمارها فقد أفلح، وإن إساء استغلالها فقد حكم على نفسه بالموت.

فيوم أزاح الباشا من طريقه آل كاهية، ثم ألحق هؤلاء بصهره ورئيس بحريّته، وكذلك بابن أخته، هلّل الناس وتحدّثوا عن استئصال الدّاء الذي أطلقوا عليه اسم «الورم الخبيث» الذي لا يهدّد حياة الباشا وحده، ولكنه يتهدّد حياة المملكة كلّها. فلم يعد أهل الحاضرة يخافون من شيء كما يخافون على استيلاء أحد هؤلاء المغامرين على الحكم ليعود بالبلاد إلى أزمان الفوضى والخراب ونهب الناس وقتلهم كأنهم غنيمة من غنائم الحرب وليسوا أهلاً لبلد ينافس في تاريخه ونواميسه وأعرافه أعرق الأوطان. وقد رأى البعض في صدور هذا الفرمان تنازلاً عن كبرياء، وربما تنازلاً عن مكاسب دفع فيها الباشا دماء ذوي القربى، في حين رأى فيها آخرون لجوءاً إلى الهدنة لالتقاط الأنفاس أوّلاً، ولتهدئة روع العناصر المؤيدة للفريق المغدور ثانياً؛ لأن السياسة في رأيهم ما هي إلاّ حلبة حرب تتعاقب فيها حملات الكرّ والفرّ.

ولكنّ القليلين يدرون سرّ تنازل الباشا ولم يروا فيه سوى مناورة ماكرة غايتها شراء ذمّة الداخل لتجنّب خطر خارج جاء بخبره الجواسيس الذين أنبأوا بقرب وصول جحافل جيش شقيق أحمد كاهية الأكبر الملفّق من مرتزقة الأتراك قادماً من مصر، في الوقت

الذي اقترب فيه وصول جيش شقيقه الثاني بجيشه الملفّق من مغامري القبائل قادماً من تونس.

وكان لا بدّ أن يثني أولئك الذين أوتوا علماً بحقيقة هذا الخطر على دهاء محمد باشا دون أن يفوتهم التنويه بالروح العبقرية التي ورثها عن سلفه أحمد الأكبر، سيّما أن الباشا استطاع أن يستثني سفن الإمبراطورية الفرنسية من الغزوات البحرية يوم وافق على استصدار الفرمان.

## 13

أبلغ رجال الاستطلاع زعيم قبائل المنطقة الوسطى بوصول طلائع جيش ابن كاهية القادم من مصر فدعا لالتئام مجلس العقلاء. لم يمض وقت طويل حتى أقبل الأكابر من الصحاري المجاورة تلبيةً للنداء. أمر الزعيم بنصب خيمة في العراء لإيواء الأشياخ. وعندما اكتمل النصاب خاطبهم بالقول:

ـ في الغد سوف تدنّس أرضنا حوافر خيل أناسٍ شرّدوا يوماً عشائرنا، وسبوا نساءنا، وقتلوا صغارنا، ولم يرحموا شيوخنا، وعاثوا فساداً في ترابنا، فهل نغفر لسلالتهم هذا الجرم وندعهم يعبرون إلى الغرب ليتمكّنوا من عرش آل القرمانلي أبناء هذه البلاد الذين وإن لم ننعم في عهدهم بالرخاء (إذ لا رخاء في هذه الدنيا كما يبدو) إلاّ أننا استمتعنا في ظلّ حكمهم على الأقل بالأمان؟ هل نتركهم يمرّون اليوم ليذيقونا صنوف العذاب غداً؟

هيمن صمت مريب زمناً قبل أن يتساءل أحد العقلاء:

- هل لنا أن نعلم عن أي جيش يجري الحديث؟

أجاب الزعيم:

- جيش من اللقطاء جمعه ابن حسن كاهية في مصر وزحف به نحو طرابلس لا لينتقم لمصرع أبيه وشقيقه كما يدّعي، ولكن ليستولي على رقابنا!

تساءل شيخ آخر:

- وإلى أيّ ملّة ينتمي جيش اللقطاء هذا؟ هل هم مصريّون؟

ابتسم الزعيم قبل أن يجيب:

- المصريون أدهى من أن يسلّموا أمرهم لمغامر حتى لو دفع لهم أموال قارون، والدليل أننا لم نسمع يوماً بأنّهم انخرطوا في جيوش أغراب!

طاف وجوه الأكابر بنظرة شاملة، أضاف:

- إنهم أتراك!

استنكر أكثر من صوت:

- أتراك؟!

ساد صمت مزموم لحظات. تكلّم الشيخ الذي تساءل أول مرة عن هوية الجند:

- لم نُخرِج يوماً ملل التّرك من هذه البلاد إلاّ بعد أن سقينا صحارينا بدماء الآباء والأجداد، وتريدنا أن ندعهم اليوم يدخلونها ليدنسوها بفظائعهم بسلام؟

سرت في المجلس همهمة. أسكتهم الزعيم بإيماءة. ولكن أحد زعماء العشائر صاح من مجلسه في زاوية الخباء:

ـ ألعن يوم في تاريخ هذه البلاد هو اليوم الذي ذهب فيه حمقى تاجوراء في وفد ليستنزلوهم على رؤوسنا بليّة من بلايا الزمان!

تدخّل الزعيم ليوضّح نوايا وفد تاجوراء:

ـ ذهب الوفد مستجيراً بالباب العالي من فظائع النصارى.

ولكن الشيخ حاجج بعناد:

ـ بلى! لقد أجارنا ذلك الوفد الملعون من الرمضاء، ولكنه دفع بنا إلى النار!

علت ضحكات استنكرها الزعيم بإيماءة، في حين برّر شيخ آخر:

ـ يجب أن نجد لأهل تاجوراء العذر. ولو كنّا مكانهم فربّما اقترفنا الخطيئة نفسها. لقد قيل لهم أن في بلاد الأناضول ظهر سلطان يهابه النصارى، وفوق ذلك فهو سلطان مسلم يحكم بين الناس بالعدل ويجير المظلوم إذا استجار!

تصدّى له الشيخ القابع في الركن من جديد:

ـ وهل يكون مسلماً من يعاقر الخمور؟ هل يكون مسلماً من يمارس الزّنا طوعاً وغصباً؟ هل يكون مسلماً من يلعب القمار؟ هل يكون مسلماً من يسفك دماء الأبرياء؟ هل يكون مسلماً من ينهب طعام اليتامى والمساكين والأرامل؟ هل يكون مسلماً من لا يتكلّم إلا ليكذب أو ليشتم أو ليقول كفراً؟ إن كان هذا هو إسلام تلك الملّة فلا شك أن ديانات النصارى أقرب إلى الإسلام وأرحم وقعاً على العباد!

سرت في المجلس همهمة استمرّت طويلاً. تركهم الزعيم يتشاورون قبل أن يعلن:

ـ لا تتسرّعوا وتذكّروا أن محاربتهم تستوجب دفع ضحايا!

صاح شيخ الركن:

ـ الموت في الحرب أهون من الحياة تحت جناح أدعياء الإيمان!

بعدها هتف أكثر من صوت:

ـ الحرب مهنتنا! الحرب دميتنا!

## 14

قال العمّ سليمان يخاطب الباشا في خلوته بضاحية المنشية:

ـ على يد أبناء الصحراء كفاك الله شرّ ابن كاهية المدعوم بعصابات الترك!

تطلّع إليه الباشا باسترخاء، ثم ابتسم. قال:

ـ وسوف أكفي البلاد شرّ شقيقه الدّعي المدعوم بعصاة الدواخل!

فتح البستاني بالمجرفة قناةً فتدفّق الماء ليروي زروعاً شاحبة في الجدول المجاور. غمغم:

ـ بعون الله!

ثم أضاف:

ـ لم يخذل الله عبداً رهن أمره بيد التسليم!

ساد صمت. ترقرقت مياه الجدول عند قدمي الباشا والتمعت تحت أشعة شمس العشيّ بوميض لا يعرف لماذا ذكّره بالدمع. قال:

ـ ماذا يعني أهل الحضرة، يا عمّ سليمان، عندما يرددون كلمة «تسليم»؟!

رفع البستاني رأسه. تطلّع إلى الفراغ. تكلّم:

ـ التسليم؟ ما هو التسليم، يا مولاي، إن لم يكن حرية؟!

ـ هل هذا ما أردت أن تشير به عليّ يوم قلت لي أنّي لا يجب أن أثق بأحد؟

ابتسم البستاني. عاند التربة الطينية المغمورة بالمياه قبل أن يقول:

ـ يستطيع مولاي أن يقول ذلك. بلى، من استجار بالتسليم نال حجاباً يستعسر حتى على مردة الجان!

ـ التسليم هو القوّة؟

ـ التسليم، يا مولاي، هو القوّة الأقوى من كل قوّة، لأنه يا مولاي حرية..

انحنى على الترباء مرّة أخرى. تمتم كأنه يخاطب نفسه:

ـ والحرية هي الله!

ـ ألم أخيّب ظنّك؟!

انتصب البستاني. راقب الفراغ. كانت السماء زرقاء، عميقة كأنها بلا قاع، بلا بُعْد، بلا بداية، بلا نهاية. قال كأنه يخاطب البُعْد المفقود في الآية:

ـ وهل يخيب من قرّر أن يعرف ربّه؟

ابتسم الباشا. راقب أيضاً في السماء بُعْداً مجهولاً قبل أن يقول:

ـ هل تعلم بما أشبّه هذه المغامرة؟

لم ينتظر على سؤاله جواباً. أضاف وهو يسبح في الفراغ.

ـ ذلك لا بدّ أن يشابه الطعنات التي يسدّدها أهل الحضرة إلى صدورهم في سويعات الوجد!

في عين البستاني لمع بريق. في مقلته برقت سيماء كأنّها السعادة. قال:

ـ أهل الحضرة لا يسدّدون الطعنات إلى صدورهم في ساعات الوجد، لأنّ لا وجود لهم في صدورهم لحظات الوجد!

ـ كنت أعرف أنّك ستقول هذا. هل تعرف لماذا؟

لم ينتظر على سؤاله جواباً مرة أخرى، أضاف:

ـ لأن من تحرّر وحده يعرف ماذا تعني كلمة «وجد»!

## 15

ـ لو خُيّرتَ بين القرمانلي الذي يحكمنا في داخل الأسوار وبين ابن حسن كاهية الذي يتهدّدنا خارج الأسوار، فأيّ الجانبين تختار؟

تساءل زائر الغسق الأسمر وهو يتصدّر جلسة المساء إلى جوار صديقه في مقهى «الأعمدة الأربع». ولكن جليسه انتظر حتّى فرغ النادل من وضع قهوتيهما التقليديتين على المائدة ليجيب على سؤال القرين:

ـ مَنْ يقاتل لينتزع الحكم مخلوق أعمى، ومن يقاتل ليحتفظ بالحكم أيضاً مخلوق أعمى، فأيّ خيار يمكن أن يكون بين قطبي عميان؟

رشف صاحب الشارب السبط من قهوته قبل أن يترنّم بلحنه

المجهول. ولكن ذلك لم يدم سوى لحظات ككلّ مرّة، لأنه سرعان ما اختنق بنوبة من نوبات الشجن فابتلع الغناء ليقول:

- والحقيقة؟ أين الحقيقة في الملهاة؟

أجابه صاحب اللحية المفلفلة التي تبدو مستعارةً ولا تتناسب مع لون بشرته البيضاء:

- الحقيقة تائهة في برّ مجهول بين هذين القطبين!

ترنّح صاحب الشارب السبط كالمجذوب في حفلة ذِكْر:

- الحكم لعبة الأزمنة!

تنهّد صاحب الشارب السبط قبل أن يتساءل:

- ألهذا تستهوي الظلال التي اعتدنا أن نسمّيها الرجال؟

- ماذا يفعل الرجل إن لم يتسلّط؟

- أليست امرأة في المخدع دمية كافية؟

- هيهات!

- لماذا؟

- لأنها آفة الأمل، وفوق ذلك مملّة!

- ولكن المرأة برغم ذلك تهبنا لذّة، أمّا التسلّط فلا يعدنا إلاّ ليخذلنا!

- لذّة المرأة أفيون مميت!

عاد صاحب الشارب السبط يروّض لحنه. ولكنه ما لبث أن تساءل:

- هل تظنّ أن القرمانلي سيغلب؟

رشف صاحب اللحية المفلفلة من قهوته المجدوحة بما اعتاد

الرجلان أن يطلقا عليه اسم «قطرات الترياق»، ثم تلاها برشفة أخرى. بعدها قرّر أن يتفرّغ للإجابة على السؤال:

ـ إذا أوتيتُ من علم الكهانة نصيباً فإن القرمانلي سوف يغلب!

ـ كيف يغلب القرمانلي إذا كان محاصراً داخل أسوار المدينة ولا يحرّك ساكناً لفكّ الحصار؟

أجاب القرين ببرود:

ـ من لا يحرّك ساكناً دائماً هو الغالب!

ـ ماذا تقول؟

ـ لديّ لك حجّة في ذلك: ألم يغلب سلفه أحمد الأكبر أساطيل الفرنسيس لأنه لم يحرّك ساكناً؟

أطلق صاحب الشارب السبط ضحكة. قال:

ـ ولكن القرمانلي الأب حرّك ساكناً. ألم يقم بإخلاء المدينة والانسحاب إلى الضواحي؟

ـ إخلاء المدينة والانسحاب إلى الضواحي عمل أكثر سلبية من مجرد الوقوف مكتوف اليدين؛ لأن الانسحاب في عرف المنطق فرار. والفرار في عرف الحروب هزيمة. ولكن في عرف الربّ العبرة دائماً بالنتيجة. ونتيجة تلك الحرب كما تعلم غلبة القرمانلي وهزيمة للفرنسيس شنيعة!

علا صوت المؤذن من مئذنة جامع درغوت المجاور فانفضّ ما تبقّى من روّاد المقهى وهرعوا لتأدية صلاة المغرب. ولكن الرفيقين لم يتزحزحا. بل يُرْوى أن الحديث لا يروق لهما عادةً إلاّ عندما يخلو المقهى.

قال صاحب الشارب السبط:

ـ يقال أن الباشا أمر قادة جيشه ألاّ يرموا عصابة ابن كاهية حتّى بحجر برغم أن الأنباء تفيد بوصول إمدادات البارود وقطع كثيرة من المدافع. ألا يبدو لك هذا غريباً؟

ـ لا يبدو هذا غريباً إلاّ لمن ظنّ أن الحروب لا تعدو أن تكون تبادلاً للرماية، ولكن آل القرمانلي مخلوقات من طينة أخرى.

ـ قيل أن الباشا ردّد مراراً قوله بأنه يرفض أن يضرب أبناء شعبه بالقنابل حتى لو غرّر بهم مغامر متآمر مثل سليل حسن كاهية الأصغر!

تمتم صاحب اللحية المفلفلة بتمائم مجهولة قبل أن يقول:

ـ حكمة أخرى من الباشا أن يقول ذلك.

ـ هل تظنّه صادقاً؟

ـ هؤلاء الحكّام ثعالب!

ـ لا تنسَ أن أمرهم لا يهمّنا كثيراً، لأننا أهل فرجة ولسنا يوماً بأهل دنيا!

ـ نحن أهل فرجة فعلاً، ولكن أنت من قال في المرّة الماضية أنّنا معنيين لأننا في هذه المدينة نحيا!

حاججه صاحب اللحية المفلفلة:

ـ أن نحيا في مكانٍ مّا يعني أن نحترم أعراف المكان الذي نحيا في ربوعه، وأنت تصرّ في كل مرّة أن تستخفّ بالأعراف.

ـ هل زلّ لساني حقّاً؟

ـ بلى! لقد قلتَ منذ قليل أن الحكّام ثعالب!

ـ وهل هذا خطيئة؟

ـ خطيئة! أم أنّك نسيت العرف الذي يحرّم سبّ الحاكم حتى في السرّ، لأن الطير والريح والأرواح هم جند ينقلون لصاحب الحكم الخبر؟!

تبادلا نظرة. أضاف صاحب اللحية المفلفلة:

ـ لم تهلك ثلاثة أرباع الخليقة إلاّ بسبب زلل الألسن، ونحن لا نريد في هذه الدنيا سوى هدوء البال.

أضاف القرين بلهجة خبث:

ـ والفرجة أيضاً!

## 16

المسيو كولّيه: جئت، يا سعادة الباشا، لأعبّر لكم على امتنان فرنسا لعملكم على تحرير سفينتنا التي اختطفها بحّارتكم قبالة سواحل مرسيليا.

محمد باشا: لم نكتفِ بتحرير السفينة، ولكنّا أمرنا بطرد الربّان الذي استولى عليها.

المسيو كولّيه: لا شكّ أن صاحب الجلالة مليكنا سوف يرى في هذا العقاب عملاً وديّاً من جانب سعادتكم عندما يتمّ إبلاغه بذلك.

محمّد باشا: لم نستنزل هذا القصاص بالربّان الشقي استرضاء لأحد، ولكن تنفيذاً لعهد قطعناه على أنفسنا نصّت عليه بنود الاتفاقيات الموقعة بين بلدينا.

المسيو كولّليه: يقال أن الأنبل من نيل السعادة هو البحث عن السعادة في أداء الواجب.

ابتسم الباشا. قال القنصل:

ـ الحقّ أني لم أقبل عليكم لأعبّر لكم عن امتنان بلادي فحسب، ولكني جئت لأنقل لكم تهاني صاحب الجلالة ملك فرنسا على انتصاركم في حربكم الأخيرة ضد مكائد الأستانة!

استعجب الباشا:

ـ مكائد الأستانة؟

ـ حيثما ظهر تركي فثمّ إصبع من أصابع الباب العالي!

عاد الباشا يبتسم. تطلّع إلى البحر عبر النافذة قبل أن يعبر عن شكوكه:

ـ لا أظن أن الباب العالي في حاجة لاستخدام أبناء حسن كاهية.

ـ لو لم يكن الباب العالي بحاجة لأبناء كاهية لما زوّدهم بألف جندي من خيرة محاربي جيشه!

ـ ما أعلمه أن جيش ابن كاهية شرذمة جمعها الخائن من فلول الانكشارية الذين ضاق بهم السلطان ذرعاً فلم يجد حيلة للتخلّص من شرورهم إلا بتصديرهم إلى البلدان الأخرى!

ولكن المسيو كولّليه لم ييأس فدفع بحجّة أخرى:

ـ ما أعلمه أيضاً، بل ويعلمه معي الجميع، أن سلاطين الأستانة لم يغفروا لهذه البلاد العريقة انسلاخها عن سلطانهم منذ استطاع أحمد الأكبر أن يتولّى أمرها ليلقنهم درساً برفض فرمانات تقضي

بتعيين ولاتهم أوّلاً، وبتطهير البلاد من انكشاريتهم ثانياً، وباستطاعته أن يصير مثالاً يُحتذى من قبل بقية إيّالات الإمبراطورية سيّما إيالات الشمال الأفريقي ثالثاً.

عبث الباشا بمسبحته الفضية. نظر بعيداً. قال بهدوء:

ـ أعلم أنهم لم ينسوا، ولن ينسوا، لآل القرمانلي هذه الخطيئة، ولكني أدري أيضاً أن الأستانة لن تدسّ أصابعها في مؤامرات دنيئة لسبب بسيط وهو أنّها لا تنوي الإخلال بقواعد اللعبة!

ـ اللعبة؟

ـ إذا كان تعبير «لعبة» لا يروق لك فبإمكانك أن تستبدله بكلمة «هدنة»!

ابتسم الباشا مرة أخرى. قال:

ـ ليست هدنة معلنة بالطبع، ولكنّها هدنة ضمنية نقبل بموجبها بالانضواء تحت راية الإمبراطورية اسماً، ولكنّنا نحمل أوزارنا على ظهورنا فعلاً!

ـ الحق أني لم أفهم ما يمكن أن يعنيه حمل الأوزار على الظهور فعلاً!

ـ حمل الأوزار على الظهور يعني أكثر مما قد نتخيّل. حمل الوزر على الظّهر في لغتنا يعني عدم تدخل الباب العالي في شئوننا الداخلية منها وحتّى الخارجية. ولولا هذا البند في المعاهدة الضمنية بيننا لما استطعنا أن نتجادل في أمر الأستانة كما نفعل الآن، ولما استطعت أن تنقل لي امتنان ملك فرنسا على النحو الذي فعلته منذ

قليل. هذا يعني بالطبع أن علينا أيضاً ألاّ نطمع في أن تهرع الأستانة لنجدتنا فيما لو تعرّضنا لقصف المدافع من الدول الأجنبية. والبرهان هو الحرب التي خاضتها بلادكم فرنسا ضدّنا في عهد القرمانلي الأكبر. ولكن ليس هذا كل شيء في المعاهدة الضمنية، بل ثمّة البنود السريّة التي لا تخلو منها أي معاهدة جديّة. من هذه البنود ما يقول أن بوسع الباب العالي أن يستعيد ضالّته إلى رحاب الحضيرة فيما لو استطاع إلى ذلك سبيلاً. وهو ما يعطي للأستانة الحقّ في نسج الدسائس لاسترجاع الغنيمة المفقودة فيما لو سنحت الفرصة. وهذا البند سرّ يقظتنا، لأن في استرخائنا يكمن سبب هلاكنا.

تابعه القنصل باهتمام. وعندما انتهى تساءل المسيو كوللّيه:

- ألن تكون حملة الأخوين كاهية دسيسة من دسائس الأستانة التي تحدّثتم عنها؟

- ما قام به الأخوان كاهية مغامرة. والأستانة تتجنّب التورّط في المغامرات، كما أنّها لا تثق في المغامرين كثيراً!

ساد صمت قصير. عقّب القنصل أخيراً:

- لا أملك يا سعادة الباشا إلاّ أن أكبر فيكم تسامحكم!

تساءل الباشا باسماً:

- هل ترى في هذا تسامحا؟

- لم ألمس التسامح في لهجتكم فحسب، ولكني وجدت التسامح في مسلككم!

- مسلكي؟

ـ بلى يا سعادة الباشا. لقد كسبتم حرباً حقيقية دون أن تطلقوا رصاصة واحدة، ودون أن تسفكوا قطرة دم واحدة!

ابتسم الباشا. قال:

ـ نحن نسمّي هذا تسليماً!

ـ الحقّ أنها أغرب حرب شهدتها في حياتي، ولا أعرف لماذا تذكّرني بتعاليم سيّدنا المسيح!

استعجب الباشا:

ـ تعاليم السيّد المسيح؟

ـ أظنّ أن الأعظم من أن ندير الخدّ اليمنى لمن صفعنا على خدّنا الأيسر هو الانسحاب إلى الوراء لا خطوة واحدة، بل خطوات. لأن إدارة الخدّ الأيمن لمن صفعنا على خدّنا الأيسر بمثابة استفزاز وليس تسامحاً. وأحسب أن هذا هو ما فعلته يا سعادة الباشا في حربك مع أولئك العصاة!

ـ يطيب لي أن أسمع هذا!

هيمن صمت. دخل أمين سرّ الديوان وهمس في أذن الباشا. ولكن سيماء الباشا لم تتبدّل، فقال القنصل:

ـ الحقّ أني جئتكم من مليكي برجاء!

استنكر الباشا:

ـ رجاء؟!

اعتدل المسيو كولّليه في جلسته قبل أن يقول:

- أنتم تعلمون أن بلادي تخوض في قارّتنا العجوز حروباً شرسة كل يوم.

- أعلم.

- ووقود الحروب كما تعلمون الرجال أوّلاً.

- وثانياً؟

- الجياد!

استفهم الباشا:

- هل قلت الجياد؟

- بلى يا سعادة الباشا. الجياد هي حطب حروبنا التي نتجاهلها برغم أنها كثيراً ما تكون أكثر ضرورة من الرجال أنفسهم.

- عجباً!

- ربّما لأن النساء يلدن من الرجال أكثر مما تلد الأفراس من الجياد!

أطلق الباشا ضحكة. كانت ضحكة مضحكة. ضحكة مكتومة. ضحكة لم يجد لها الجليس سبباً. أضاف القنصل:

- لهذا السبب نجد الرجال في سلاح الفرسان دائماً أندر عدداً من سلاح المشاة!

- هل تعتقد أن السرّ يكمن في ندرة الجياد؟

- بالطبع!

عبث الباشا بحبات المسبحة. قال القنصل:

- ملك فرنسا سوف يكون في غاية الامتنان فيما لو تكرمتم بتزويد

اصطبلات مملكته بفحول جيادكم ليتمكّن من تحسين سلالات الخيول بعد أن أفنت الحروب تلك الفصائل التي سبق لأسلافكم أن زوّدوا بها أسلافه قديماً من جياد منطقة درنة!

تمتم الباشا بغموض:

- الفحول!

ردّد المسيو كوللّيه:

- أجل يا سعادة الباشا: الفحول!

قال الباشا ببرود مريب:

- الفحول هو ما لا نبخل به على أحد!

ثم تزعزع بضحكة مجلجلة، منكرة (قال فيما بعد أنه لم يغفرها لنفسه يوماً)، فيما كان القنصل المسكين يتطلّع إليه بذهول!

## 17

أصبح لا يذهب إلى بيته الريفي في ضاحية المنشية إلاّ ليختلي بالعمّ سليمان. اليوم أيضاً استلقى على أريكة في البستان وشرع يشاهد الرجل النحاسي العاري الساقين حتى الركبتين الملطختين بأوحال الأرض. اليوم قرّر أن يفاتحه بالدّاء الخفيّ الذي نشأ معه منذ الطفولة كأنه قدر فلم يخبر بأمره أحداً ليقينه الغامض بأنّه قرين الكلّ. انتظر حتّى انتصب الرجل بقامته ليتطلّع إلى السماء كعادته عندما يريد أن يتحرر ليقول بجسده شعراً فخاطبه قائلاً:

- أنت لم تحدّثني يوماً عن الحزن يا عمّ سليمان!

قال وهو ما يزال يكتب بقامته المهاجرة إلى السماء أشعاره:

- أجل يا مولاي. الحزن معشوق أصحاب التسليم.

- بأيّ ترياق يتداوى أهل الحضرة ليهوّنوا على أنفسهم الوجع؟

أجاب صاحب الحضرة من بُعْده في المجهول:

- بالحضرة يا مولاي!

هاجر الباشا أيضاً إلى رحاب المجهول. تطلّع إلى السماء التي لا يتطلّع إليها عادةً إلاّ ليتفقّد الغيوم نهاراً، أو ليتفقّد الأنجم ليلاً. تطلّع إلى الوطن الذي لم يتطلّع إليه يوماً إلاّ ببصره، في حين علّمته هجرة صاحب الحضرة أن يتطلّع إليه بقلبه لا بعينه. تطلّع إليه دائماً كما يتطلّع إليه الدهماء الذين لم يروا فيه يوماً إلاّ خواءً. تطلّع إليه دائماً كما يتطلّع إليه الكلّ الذين لم يروا فيه يوماً وطناً، ولكنهم رأوا فيه المنفى. والعمّ سليمان وحده وجد في رحابه الوطن فقال بهامته دائماً الشعر كلّما تطلّع إليه. يقول الشعر بجسده قبل أن يقوله بإيماء مقلته أو حتّى بلسانه. قال:

- وماذا يفعل من لم تهبه الأقدار القدرة على الحضرة؟

- أووه! ذلك، يا مولاي، هو المنفى!

- أردتك أن تبحث معي عن ترياق لهذا المنفى!

- إذا أعجزنا، يا مولاي، الأمر فعليناأن نسعى!

- أن نسعى؟!

- بلى يا مولاي. المسعى ترياق للحزن ودواء لرفيقنا المنفى. ولهذا نرى أهل الفلاة أقل الناس إصابةً بهذه العلّة، ولولا هذا الدّاء لما احتاج الخلق أن يسعوا في هذه الدنيا.

- ظننت أن الناس يسعون في طلب الأرزاق!

- هذا ما يظنّونه هم أنفسهم يا مولاي. ولكنهم لا بد أن يأتي اليوم الذي يدركون فيه حقيقتهم برغم غربتهم.

عاد الباشا من رحلته في رحاب الوطن المفقود فاغترب. اغترب لأن الحرية تبدّدت فوجد نفسه في قبضة الحزن من جديد. قال:

- ولكن من أين لمخلوقٍ مثلي أن يجد السبيل لأن يسعى؟

عاد صاحب الحضرة من رحلته أيضاً. ركع على التراب ليعاند الأعشاب قبل أن يقول:

- لأمثال مولاي توجد الدمية!

- هل قلت الدمية؟

- اللّهو، يا مولاي، اللّهو!

تنهّد الباشا بخيبة أمل. تساءل بعد لحظات:

- وماذا على أمثالي أن يفعلوا إذا لم يجدوا في اللّهو طعماً؟

رمقه الرجل خلسةً. لمع في مقلته إيماء مكرٍ قبل أن يتساءل:

- حتى في نساء الأعلاج؟

ابتسم الباشا. أجاب بلهجة لا مبالية:

- حتّى في نساء الأعلاج!

ثم تساءل كمن تذكّر شيئاً:

- هل عانق العم سليمان حسناء أعلاج يوماً؟

غزت وجنتي الرجل حمرة حياء. قال:

- حسناء الأعلاج لا، أمّا حسناء الترك فنعم!

ابتسم الباشا. قال ببرود:

- حدّثني عن السيرة مع حسناء الترك!

توقّف العمّ سليمان عن معاندة النّبت الضارّ في عشب البستان. اختلس إلى الباشا نظرة. قال:

- سيرة طائشة لشاب طائش أكل الزمان عليها وشرب.

ولكن الباشا عاند بروح طفل:

- حدّثني عن السيرة مع حسناء الترك يا عمّ سليمان!

- ليس في الأمر ما يثير يا مولاي. إنها سيرة مكرّرة ككل سير اللّهو في هذه الدنيا.

- حدّثني عن السيرة مع حسناء الترك يا عمّ سليمان!

يئس صاحب الحضرة. تكلم بالسيرة مع حسناء الترك أخيراً:

- ماذا أقول لمولاي؟ كانت حسناء بالفعل يا مولاي. كان ذلك في تاجوراء، في بداية عهدي بالحقول، عقب نزوحي من أرياف الدواخل. كنت أتنقّل بين المزارع في مواسم الحصاد لأجني لأصحاب الأرض المحاصيل. وكان أبوها مالك تلك الأرض. وقد رأيتها لأوّل مرّة برفقه خادمتيها عندما أقبلت علينا لتجلب لنا طعام الغداء. وقد أدهشتني لا بصدرها العامر، أو بساقيها المذهلتين، ولا ببشرتها الذهبية فحسب، ولكن بجرأتها أيضاً. كان في عيني تلك

الفتاة إيماء لا يصدّقه العقل يا مولاي. وأريد أن أصدقك القول فأقول أني تمنيت أن يغمى عليّ. وعندما رأيتها في اليوم التالي أصابتني الحمّى لا بسبب الشهوة كما قد يخطر ببال مولاي، ولكن بسبب ذلك الشيء الذي أبصرته في عينيها. ذلك الشيء الذي لا أملك اليوم إلاّ أن أسمّيه نداءاً. بل هو الإغواء يا مولاي.

سكت. مسح عرقاً نزّ من جبينه. تمتم الباشا:

ـ أكمل السيرة يا عمّ سليمان!

انتصب الرجل. شيّع رأسه إلى أعلى، ولكنه لسرّ مّا لم يكتب بقامته الشعر هذه المرّة. أضاف:

ـ في المساء، بعد صلاة العشاء، جاءتني في الجامع حيث كنت أقضي الليالي قبل الانتقال إلى الحقول الأخرى. في تلك الليلة حدث ما لم أتخيّل يوماً أن يحدث...

سكت. ولكنه لم يتزحزح في وقفته تلك، فما كان من الباشا إلا أن حثّه قائلاً:

ـ ماذا حدث في تلك الليلة يا عمّ سليمان؟

تلجلج الرجل وهو يكمل:

ـ لا أنكر يا مولاي أنها استولت عليّ منذ اليوم الأوّل الذي رأيت في عينيها ذلك النداء. وتمنيت أن أنالها كما لم أتمنّ شيئاً في هذه الدنيا. ولكني لم أصدّق أبداً عندما وجدتها في تلك الليلة في أحضاني!

هتف الباشا:

ـ في أحضانك؟

ـ بلى يا مولاي. في أحضاني. فهل أكذّب بعد ذلك اليوم ما يُقال من أن كلّ الكائنات، الحيّة منها وحتّى الجمادات، تفعل كل ما بوسعها في سبيل تحقيق أمانينا إذا تمنّينا كما يجب أن نتمنّى؟

ـ وكيف يجب أن نتمنّى يا عمّ سليمان؟!

ـ يجب أن نتمنّى كما تمنيت في ذلك اليوم الذي رأيتها فيه يا مولاي! يجب أن نتمنّى كأننا ننحر رقابنا بأيدينا يا مولاي!

ـ ما معنى أن ننحر رقابنا بأيدينا يا عمّ سليمان؟

ـ أن ننحر رقابنا بأيدينا يعني أن نعشق يا مولاي. وأن نعشق يعني أن نغترب يا مولاي. وأن نغترب يعني أن نموت يا مولاي!

ردّد الباشا غائباً:

ـ أن نموت! أن نموت!

ثم هتف:

ـ لقد قلت أنك احتضنتها في الجامع، أليس كذلك؟

ـ ليس في الجامع وحسب يا مولاي.

انتظر الباشا أن يكمل، ولكن العبارة وقفت في حلق العمّ سليمان غصّةً، فشجّعه الباشا:

ـ أكمل، وتذكّر أنها صارت سيرة أفناها الزمان كما سيفنينا يوماً لنصير أيضاً مجرّد سيرة!

ـ لقد احتضنتها وراء المنبر يا مولاي!

فزّ الباشا:

ـ ماذا تقول؟

كان الرجل يرتجف، وبرغم الرجفة كان يحدّق في الباشا بحدقتين غريبتين تلمع فيهما الوقاحة.

قال بلهجة مريبة:

ـ لا أعرف كيف وجدت نفسي هناك. اليقين أنها هي التي قادتني إلى هناك...

حدّق الباشا في عينيه بذهول. كان مستنفراً أيضاً. كان يجاهد ببسالة أيضاً، ولكن صاحب الحضرة لاحظ أن الباشا كان يرتجف أيضاً، فقرّر أن يرمي بنفسه إلى اليمّ ويعترف بكل شيء:

ـ ليس هذا كل شيء يا مولاي!

حشرج الباشا:

ـ ماذا أيضاً؟

تردّد الرجل فانتهره الباشا:

ـ أفصح أيها الشقيّ!

قال الرجل غائباً:

ـ الكتاب!

بحث الباشا في عينيه الاستفزازيتين عن تفسير، ويبدو أنه ضاق ذرعاً بتردّده ووقاحته وجنونه فصرخ فيه بلا وعي:

ـ أيّ كتاب؟

ابتسم الرجل ابتسامة غريبة. قال بلهجة أغرب:

ـ وأيّ كتاب يمكن أن يخفيه منبر الجامع؟

هبّ الباشا:

ـ إيّاك أن تقول هذا؟

ولكن الرجل لم يقل شيئاً. الرجل قال كل شيء بعينيه فتخلّى عن القول بلسانه كما تخلّى يوماً عن الدنيا بجسده. فلم يجد الباشا مفرّاً من أن يقول نيابةً عنه:

ـ إيّاك أن تقول أنه القرآن!

هزّ الرجل رأسه علامة الإيجاب دون أن تفارق النظرة الرهيبة مقلتيه. أفلتت من صدر الباشا صرخة استنكار. هتف بلا وعي:

ـ لا!

ولكن الرجل أضاف في اللحظة التي تحوّل فيها الإيماء في حدقتيه إلى جنون:

ـ ليس هذا كل شيء!

حشرج الباشا يائساً:

ـ ماذا في جعبتك بعد؟!

ـ الدّم!

ـ الدّم؟!

ـ بلى يا مولاي. لقد سال الدّم فلوّث صفحات الكتاب!

ـ عليك اللعنة!

لفظها الباشا كقذيفة. لفظها واقفاً. ثم جلس ليزفر أنفاساً كأنها النار. قال:

ـ هل تريد أن تقول أن تلك المومس كانت بكراً؟!

ـ بلى يا مولاي!

أشاح الباشا بوجهه بعيداً. غاب في البعد زمناً، ثم هبّ واقفاً. همّ بأن يخطو، ولكنه سمع صاحب الحضرة يقول:

ـ الحضرة ثمنها الخطيئة يا مولاي!

غمغم الباشا:

ـ كلّنا خطاة!

أضاف الرجل:

ـ والحزن ثمن التسليم!

اندفع الباشا خارج البستان، ولكن صاحب الحضرة لاحقه لا ليشيّعه هذه المرّة كعادته بل ليلاحقه بعبارة غامضة:

ـ إذا أخفق مولاي في مداواة الحزن فعندي له عقار!

لم يلتفت الباشا، ولكن الرجل تعقّبه مسافة وهو يردّد العبارة، ثم توقّف أخيراً ليطلق ضحكة جنونيّة منكرة ظلّت تتردّد في أذن الباشا طويلاً.

## 18

في جلسة المساء بمقهى «الأعمدة الأربع» قال القرين ذي الوجه المستدير يخاطب قرينه القديم:

ـ يقال أن الباشا طلّق كل زوجاته!

قال القرين وهو يرتشف جرعة من قهوته الممزوجة بـ«قطرات الترياق»:

ـ سمعت ذلك أيضاً، ولكن ليس علينا أن نصدّق كل ما يقال.

ـ لماذا لا نصدق ما يقال إذا كان صيت الباشا قد ذاع بغرابة الأطوار منذ زمن بعيد؟

ـ لا أعرف لماذا يُتّهم بغرابة الأطوار كل إنسان لا يريد أن يفعل ما يفعله كلّ الناس.

ـ لا يجب أن يتولّى زمام أمر الناس مَنْ لا يريد أن يتصرّف كما يتصرّف الناس.

ـ هل نرمي وليّ الأمر بالتّهم لمجرّد أنه يخاف الله في عباده، ولا يريد أن يريق دماء الأبرياء، ويرفع في وجوه الخصوم الكتاب بدل أن يشهر السيف؟

زحفت على المدينة الظلمة وبدأ الروّاد يتقاطرون على المقهى بعد تأدية صلاة العشاء. على المائدة المقابلة جلس شيخ البلد يحيط به جمع من الأعيان وبعض الضباط والتجار. حيّاهما بإيماءة فردّا التحية بأحسن منها. قال صاحب السحنة المدوّرة:

ـ الحقّ أنّنا استمتعنا في عهده بأنفس ما في الدنيا: السكينة!

هتف صاحب السحنة المستطيلة:

ـ أرأيت؟

ـ لا يعرف ما معنى كلمة «سلام» إلاّ من عرف معنى كلمة «حرب»!

ـ أرأيت؟

ـ لقد كفانا شرّ الظامئين للارتواء من مياه السلطان في الداخل، وأجارنا من شرّ الطامعين في الاستيلاء على كنوز البلاد في الخارج.

ـ لم يكن ليفلح في هذا لولا ما تسمّيه أنت «غرابة الأطوار»!

رشف صاحب السحنة المستديرة من فنجانه. روّض لحن شجونه بصوت مهموس. سكت ليعقّب:

ـ ليس في تعبير «غريب أطوار» ما يعيب، لأننا لسنا كلّنا غرباء أطوار فحسب، ولكنّا غرباء دنيا!

ـ لقد أنفق الأموال بسخاء لتقوية الأسطول لا لكي يستولي على الغنائم كما فعل أسلافه، ولكن لكي يحقّق لنا الأمان من كيد القوى العظمى.

ـ وبرغم هذا فإن الكل يقول بأنّه مريض!

ـ تطليق الزوجات حتى لو كان حقيقة ليس برهاناً على الإصابة بمرض.

ـ لم نسمع بسلطانٍ طلّق الزوجات بلا مبرّر.

ـ لو فعل السلطان ذلك لاستحقّ إكبارنا!

ـ أعَن حكمة تقول هذا؟

أطلق صاحب السحنة المستطيلة ضحكة قبل أن يجيب:

ـ متى كان التنقّل بين مخادع الزوجات دليلاً على حكمة؟

ـ حكمة من باب «هكذا وجدنا آباءنا يفعلون!».

ـ من فعل ما وجد آباءه يفعلون لم يأتِ بجديد، علاوة على أنه لن يعرف السعادة.

ـ دعنا من السعادة واعترف أن الإنسان لا يطلّق الزوجات بلا سبب.

حدجه القرين ذي السحنة المستطيلة بشكّ قبل أن يتساءل:

ـ هل تريد أن تقول أنه جُنّ؟

أجاب القرين ببرود:

ـ ما أريد أن أقوله هو أنه مصاب بمرض غامض!

ـ ما معنى «مرض غامض»؟

لم يجب الجليس فأضاف سؤالاً إلى السؤال:

ـ هل تريد أن تقول أنه مرض خطير؟

تطلّع صاحب الوجه المستدير إلى السماء المزروعة بالنجوم. قال كأنه يقرأ في سيمائها نبوءة:

ـ لا أعرف عمّا إذا كان مرضاً خطيراً، ولكن ما أدريه أن مثل هذه العلل لا تمهل أصحابها طويلاً!

في تلك اللحظة اقتحم المقهى درويش: كان يلقّب بـ«المرابط»، يعتمر طربوشاً صوفياً أحمر، يرتدي جبّة صوفية أيضاً في عزّ الصيف، اعتاد أن يطوف الأركان مترنّماً بأوراد غير مفهومة، ويجود على وجوه المارّة بالبصاق الممزوج بالبركة كما يقال. أقبل من تركيا منذ سنوات ليقيم في المدينة التي تبيح للأغراب من فرط سخائها أن يبصقوا في وجهها، بل وليتسلّلوا ليناموا في مخدعها أيضاً. ويُروى أن هذا الدرويش نام في مخدعها مراراً تنفيذاً لفتوى استصدرها المفتي تقول أن المرابط مخلوق إلهيّ جاء إلى ديار أهل الدنيا رسولاً

لربّ الأرباب، وليس على الناس أن يبخلوا عليه لا بأرض، ولا بعرض. وعندما حاول الناس أن يفكّوا طلسم هذه العبارة الغامضة تحدّث المفتي فقال أن المرابط يستطيع أن ينام أينما شاء، متى شاء، ومع من شاء. ولكن الناس لم يفهموا أيضاً. وربّما فهموا ولكنهم لم يصدّقوا فما كان منهم إلاّ أن تساءلوا مرّة أخرى. يومها وجد المفتي نفسه مضطرّاً أن يستبدل الاستعارة بصريح العبارة فقال: «أموالكم ونساءكم حلّ لهم!». وبرغم أن الناس لم يصدّقوا هذه المرّة إلا أن المرابط القادم من ديار الأناضول قرّر أن يُفهم هؤلاء البلداء بلغة العمل بدل القول عندما اعترض سبيل امرأة في ساحة الرخام ليقضي منها وطره أمام مرأى ومسمع من الجميع. وقد قام أحد البلهاء (الذين قرّروا أن يغيّروا هذا المنكر بألسنتهم) فاستنجد برئيس الشّرط الذي هرع إلى المكان لا لكي ينقذ المرأة من عدوان الوحش كما ظنّ، ولكن ليملأ عينيه من هذا «الفعل المبارك» كما عبّر!

وقف الدرويش المهيب فوق رأسيهما. حدّق فيهما بعينيه المجنونتين طويلاً دون أن يتنازل لتحيّتهما. ثم قرأ فوق رأسيهما تميمة من تمائمه المجهولة قبل أن ينصرف.

قال صاحب السحنة المستطيلة:

- ألن يكون لك هذا «المرابط» حجّة كافية لمزايا التحرّر من الزوجات؟

كبّر الجليس ذي الوجه المستدير قبل أن يقول:

- الحمد لله الذي أجارنا من وزر الزوجات!

ولكن قرينه قرّر أن يتخابث:

ـ هب أن لك زوجة هجم عليها هذا المخلوق ليطأها نيابةً عنك في عرض الشارع فماذا تفعل؟

ردّد صاحب السحنة المستديرة بتسليم:

ـ الحمد لله الذي أجارني من الزيجات!

هتف رفيقه:

ـ أرأيت؟ هل تستطيع أن تنكر بعد الآن حكمة الباشا في تطليق الزوجات؟

تبادلا نظرة. ولم يلبثا أن انفجرا في ضحكة عالية لفتت انتباه شيخ البلد.

## 19

اجتمع محمود راغب المتنكّر في جلد درويش الأناضول إلى المفتي الذي حذّره بالقول:

ـ اجتهد كما تشاء، ولكن احترس من الاستشهاد بآيات القرآن أكثر مما ينبغي!

كانا يلتئمان في خلوة يوم الجمعة ببيت المفتي في ضاحية المنشية، يحتسيان أقداحاً مشبوهة ليتجادلا على انفراد في شئون المملكة كما اعتادا أن يفعلا منذ أقبل على الديار محمود راغب رسولاً من الأستانة متنكراً في جبّة درويش تركي!

حدج الضيف يومها مضيفه بنظرة استفهام، وعندما لم يجد في سيماء المفتي ظلاً لمزاح تساءل:

ـ لا أعرف بماذا يمكن أن يستشهد الدرويش في هذه البلاد إذا لم يستشهد بالقرآن!

ـ تستطيع أن تستشهد، ولكن في حدود!

استنكر محمود راغب:

ـ ما معنى «في حدود»؟

احتسى المفتي جرعة من قدحه. تنهّد قبل أن يوضح:

ـ أن تستشهد بالكتاب في حدود يعني ألاّ تردّد أكثر مما ينبغي الآية الكريمة التي تقول: «إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً» إلاّ إذا اشتريتها بالآية الكريمة التي تقول: «وأطيعوا أولي الأمر منكم» ثلاث مرات على الأقل، ثم بعدها تستطيع أن تخرج من جعبتك ما تشاء لأن الله يبيح لأمة الدراويش ما لا يبيح لغيرها!

ولكن الضيف حاججه بحماس إنسان انسجم في تقمّص الدور إلى حدّ نسي فيه حقيقته كبهلوان يلعب دوراً في مهزلة:

ـ هل استطاع آل القرمانلي أن يكمّموا أفواهكم حتى عن ترديد آيات القرآن؟

ولكن المفتي لم يزد على أن خاطبه ببرود:

ـ نحن لا نفعل ذلك إرضاء لآل القرمانلي، ولا لأعلاج آل القرمانلي، ولكنّا نفعل ذلك من باب إعطاء ما لله وما لقيصر لقيصر!

هتف «الدراويش»:

ـ ها أنت تستجير بعتبة النصارى في حين تنهى الناس عن اللّوذ بالعروة الوثقى!

ـ ماذا؟

ـ لماذا تستشهد بآيات دين عيسى في حين تحرّم عليّ الاستشهاد بآيات دين محمّد؟

ابتسم المفتي باستخفاف قبل أن يقول:

ـ لا تكن طفلاً يا محمود بك! فإن استشهد بآيات الإنجيل لا يعني أني أعتنق الإنجيل. ثم ليس عليك أن تنسى أن الديانات كلها طرق مختلفة تقود إلى الواحد الأحد. كما أن الإيمان في الفرقان مشروط بالإيمان بالكتب السماوية التي سبقت القرآن. وقد أصدرتُ من الفتاوي في سبيل تسهيل مهمّتك ما ينكره القرآن ويشيب من هوله الرضيع، فهل صدّقت أني فعلت ذلك استرضاءً لرسالتك الإلهيّة؟

أطلق المفتي ضحكة حتى استلقى إلى الوراء. ثم استغفر قبل أن يحتسي جرعة من قدحه المريب ليضيف:

ـ كلاّ يا محمود بك! لم أقبل بإرضاء شهواتك الحيوانية بالفتاوي استجابةً لرسالتك السماوية المزعومة، ولكني فعلت ما فعلت إرضاء لرسالتك الدنيوية. فعلت ذلك نزولاً عند مشيئة الصفقة المبرمة بيننا وبين صاحب الأستانة. وليس عليك الآن أن تحسب نفسك درويشاً حقّاً لأنك بذلك لن تسبّب خللاً في ناموس اللعب فحسب، ولكنك ستفسد علينا الصفقة!

احتسى محمود بك من قدحه المريب جرعة أيضاً. استغرق في تفكير قبل أن يقول:

ـ حسناً. ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول أن القرآن مع أصحاب السلطان في خصام منذ القدم!

ـ الحقّ أني لا أفهم.

ـ لقد حاول علي بن أبي طالب أن يجمع السلطان مع القرآن فماذا كانت النتيجة؟

تمتم محمود بك راغب وهو يعدّل طربوشه فوق رأسه:

ـ كانت تلك مأساة!

ـ لم تكن تلك المحاولة مأساة وحسب، ولكنّها كانت درساً لأولي الألباب. ولكن الكثيرين لم يفهموا الدرس برغم أنه أوضح من شمس الظهيرة!

تناول جرعة من القدح المريب قبل أن يضيف:

ـ في تلك المعركة صار القرآن من نصيب علي بن أبي طالب، في حين صار السلطان من نصيب معاوية بن أبي سفيان. لأن ليس لأهل العاجلة أن يفوزوا بالآجلة، كما ليس لأهل الآجلة أن يفوزوا في الدنيا بكنوز العاجلة. وقد صدق الذين عبّروا عن هذه القسمة عندما قالوا عبارتهم الشهيرة: «قلوبنا مع عليّ، ولكن سيوفنا مع معاوية!». وهي وصيّة تترجم حرفيّاً ما قلته منذ قليل استعارة من دين عيسى من أننا يجب أن نعطي ما لله لله، وما لقيصر لقيصر. فهل فهمت الآن؟

زحزح الدرويش المزعوم طربوشه إلى الوراء قبل أن يجيب:

ـ الحقّ أقول أني فهمت وصيّة الأجيال، ولكني لم أفهم صلة الوصيّة بمهمّتنا في زعزعة وضع القرمانلي في قلوب الأهالي.

ـ الصلة أوضح مما تتخيّل يا محمود بك: لا تستفزّ الحاكم حتّى بكلام الله، لأن الحاكم لم يكن ليرتضي أن يصير حاكماً لو لم يصر يوماً عدوّ الله!

ـ وكيف تريدني أن أفلح في زعزعته إن لم أستعن بالفرقان؟

ـ تستطيع أن تستعين بآيات الكتاب باعتدال، في حين تستطيع أن تستغلّ مواهبك كدرويش أبشع استغلال، لأن الدراويش في يقين الناس أحباب الله!

ـ هل أستطيع أن أقول البدع؟

ـ تستطيع أن تقول كفراً أيضاً دون أن يلومك الناس!

ـ لماذا؟

ـ لأنّك الدرويش. لأنك لا تتكلّم بلسانك، ولكنّك تتكلّم بلسان الوحي!

ـ لسان الوحي؟

ـ بلى! لسان النبوءة! لسان الله!

تناول محمود بك جرعة من قدحه المريب. قال:

ـ ظننت أن حرف الكتاب أقوى من..

قاطعه المفتي:

ـ ليس المهمّ ما تظنّ. المهمّ ما يظنّ الناس. ليس في الدنيا حجّة أقوى من حجّة الدرويش في عرف هؤلاء الناس. إذا ارتضى هؤلاء

البلهاء أن تقفز على زوجاتهم وأخواتهم وأمهاتهم لتعتليها في الشوارع كما تعتلي التيوس الشياه دون أن يحرّكوا ساكناً، فكيف لا يرتضون أحكاماً يتفوّه بها خليل الله هذا؟

ثم هدّده بسبّابته قائلاً:

ـ افعل كل ما يروق لك، ولكن احترس أن تستفزّ النار بنصل السكين إذا شئت ألا تفسد علينا عملنا!

تساءل محمود راغب ببلاهة:

ـ ما معنى استفزاز النار بنصل السكّين؟

تجرّع المفتي من قدحه المريب قبل أن يجيب:

ـ اللسان نصل سكّين، والسلطان هو النار!

## 20

السراي الحمراء. مايو 1752م.

في مرفأ المدينة رست سفينتان يرفرف على صاريهما العلم الفرنسي. من إحداهما تنزّل رجل طويل القامة، نحيل البُنْيَة، يعتمر قبّعة مثلثة الأضلاع، يتدلّى من خاصرته غمد منمنم بالأحافير حاجباً سيفاً مطرّزاً بالفصوص.

هرع لاستقباله القنصل كولليه ولفيف كثيف من أكابر المملكة. من هناك توجّه إلى بلاط الباشا فيما كانت مدافع القلعة تطلق القذائف تحيّةً لرسول ملك فرنسا.

اقتيد الضيف ليمثل بين يدي الباشا الذي وقف لاستقباله إكباراً لصديقه «ملك ملوك الأمم النصرانية» كما راق له أن يعبّر لضيفه

الرفيع. ولكن الفارس «دي غراس» كان مجهداً بسبب هبوب عاصفة كادت تغرق سفينته فقرّر أن يستبعد المراسم ويبلّغ رسالته في الحال ليتحرّر. قال ما أن أذن له الباشا بالجلوس:

ـ مولاي الملك حمّلني أن أبلّغ سعادتكم بوجوب الوفاء بالوعد قبل الدخول في أيّ جدل من شأنه أن يضع حجر الأساس لاتفاق بين بلدينا!

ذهل الباشا. ولكنه استعاد سكينته في لحظات ليتساءل:

ـ عن أيّ وعد يتحدّث رسول الملك؟

ـ الوعد بقرع الوغد «سيكار» بالفلقة!

عاد الذهول يستولي على الباشا. ردّد مستنكراً:

ـ الوعد بقرع «سيكار» بالفلقة؟

ـ أجل يا سعادة الباشا. لقد ردّد رسولكم «علي أفندي» هذا الوعد على مسمع جلالة الملك نقلاً عن لسانكم!

جاهد الباشا مرّة أخرى ليستعيد هدوءه. ابتسم بمرارة. سأل:

ـ ولكن من هو «سيكار» هذا الذي فاز بسخط جلالة ملك أمم النصارى حتى يبعث برسوله إلى أبعد أرض كي يأمر بقرعه بالفلقة؟

صاح الفارس «دي غراس» بأعلى صوت:

ـ إنه قرصانكم الأكبر يا سعادة الباشا. إنه عدوّ الفرنسيين الأكبر الفارّ من العدالة!

ـ هل قلت أنه فارّ من العدالة؟

ـ بلى!

ـ ولكن من أيّة عدالة؟

ـ العدالة الفرنسية يا سعادة الباشا.

ـ الحقّ أني لا أفهم. هل مسيو «سيكار» هذا فرنسي الهوية أم طرابلسي الجنسيّة؟

بحلق الرسول في سقف البلاط بعينيه الحمراوين من فرط السّهر قبل أن يقول بلهجة من نفذ صبره:

ـ كان فرنسياً يا سعادة الباشا، ولكنه اليوم طرابلسيّ!

استنكر الباشا:

ـ هل هذه أحجية؟

لم يجب الفارس «دي غراس» على سؤال الباشا، ربّما بسبب الإنهاك، وربّما لرغبته في التحرّر من وزر الرسالة بأسرها في أسرع وقت. قال:

ـ في النهاية أنتم أعلم بحقيقة هذا الوحش أكثر منّي. وبرغم أن مليكي كلّفني أن أقتصّ منه بيدي أمام الملأ قبل الدخول معكم في مفاوضات، إلاّ أني مجهد يا سعادة الباشا بسبب الإعصار الذي تعرّضت له سفينتي. وأرجو أن تفعلوا ذلك نيابةً عنّي!

هذه المرّة أفلح الوقار في خيانة الباشا فأفلت ضحكة صغيرة. ابتلعها بسرعة قبل أن يومىء إلى أحد الأعوان الذي هرع لينحني أمام الباشا. مال نحوه ليهمس في أذنه بسؤال. فما كان من الرجل إلاّ أن

شيّع رأسه ليوشوش في أذن الباشا بالجواب. بعدها هيمن صمت قبل أن يخرقه الباشا:

ـ أنت تنسى أن من تدعوه «سيكار» هذا لم يعد يحمل اسم «سيكار» منذ زمن بعيد. بل هو رجل يدعى «مراد»، وفوق ذلك رجل اعتنق الإسلام ولم يعد يدين بديانات النصارى منذ زمن بعيد أيضاً. فكيف تريدني أن أسمح لك بقرع رجل مسلم وأنت رجل نصراني؟ ألا تدري أن هذا يخالف شرائع أمّتنا؟

ـ جئت يا سعادة الباشا لأبلغكم رسالة صاحب الجلالة ملك فرنسا ووصيّ الديانة النصرانية!

ـ إذا كان ثمّ من يستحقّ هذا القصاص الفظيع فهو عليّ أفندي إذا صدق ما قلتموه بشأن الوعد الكاذب الذي ادّعى زوراً بنقله على لساني، لأني لم أعِدْ أحداً يوماً بقرع أحد رجالي بالفلقة!

قال الرسول بعينين جاحظتين ربّما بسبب الغضب، وربما بسبب التعب، وربما بسبب العلّتين معاً:

ـ القرع بالفلقة في رأيي عقاب يسير إذا قورن بما ارتكبه ذلك الوغد من أفعال ضدّ دولتنا!

استوقفه الباشا:

ـ مهلاً! مهلاً! أراك تجهل ما يعنيه أن يُقرع الرجل بالفلقة إذا كنت تقول أنه عقاب يسير!

ـ بلى يا سعادة الباشا. إنه عقاب رمزيّ إذا...

قاطعه الباشا باستنكار:

ـ رمزيّ؟ هل تقول رمزيّ؟ ألا تدري أن القرع بالفلقة هو أشنع عقاب يمكن أن يستنزله القضاة بكبار الخطاة؟ هل جرّب أحد في ملّتكم قصاص القرع بالفلقة؟

أجاب الفارس «دي غراس»:

ـ ما أعرفه يا سعادة الباشا أنه مجرّد إهانة قد توقظ في أصحاب الخطيئة الضمير، ولكنه ليس عقاباً جسيماً إلى الحدّ الذي يصير فيه رادعاً!

احتجّ الباشا:

ـ هذا ما تراه أنت، ولكنّنا لا نراه نحن. لأن ما تسمّيه أنت إهانة نسمّيه في لغتنا عاراً. وقائد الجيوش الذي يلحق العار متعمّداً بأحد ضبّاطه أو أعوانه أو حتى جنوده لن يطمع في الفوز بالنصر أبداً علاوة على أنه لن يأمن حياته!

بحلق الفارس «دي غراس» في السقف مرّة أخرى قبل أن يقول يائساً:

ـ أرى أن الباشا قد ذهب بعيداً!

ـ أن نميت الرجل في عُزفنا أفضل من أن نقرع قدميه بالفلقة، لأن الموت يذهب بآلامنا، ولكن العار يبقى وراءنا، فهل يليق برسول الملك الذي يحمل لقب «الفارس» أن يروّج لتلطيخ أقرانه الفرسان بالعار؟

ـ وهل قراصنة البحر فرسان يا سعادة الباشا؟

تضاحك الباشا ساخراً. لوّح بمسبحته الفضية في الهواء قبل أن يضيف:

ـ أنتم تقولون أنهم قراصنة، ولكنّا نسمّيهم فرساناً. نسمّيهم فرساناً لا لأنّنا لا نجد فرقاً بين من يحارب في البحر وبين من يحارب في البرّ، ولكن لأنكم تسمّونهم فرساناً أيضاً عندما يكونون جنوداً في جيش بحريتكم النظامي. ولولا ذلك لما فاز المسيو «دي غراس» بلقب «فارس» الذي يرجع له الفضل في نيل ثقة صاحب الجلالة ملك فرنسا ليبعث به رسولاً إلى باشا طرابلس! فإذا كان ملك الفرنسيين يستهين بصداقتنا إلى الحدّ الذي يضع فيه هذا العمل التعجيزي المهين شرطاً للدخول في المفاوضات معنا، فلا نملك إلاّ أن نعبّر عن أسفنا العميق لإعادة رسوله إلى دياره خائباً!

حدّق الفارس في السقف بنفاذ صبر. تساءل بإعياء:

ـ هل هذا تلويح بالقطيعة يا سعادة الباشا؟

ـ من يلوّح بالقطيعة ليس من يدافع عن كبريائه، ولكن من يضع الشروط التعجيزيّة في طريق الصلح!

ـ ولكنكم وقّعتم بالأمس القريب معاهدة صلح جديدة مع ملك انجلترا، فلماذا تماطلون في تجديد المعاهدة مع مملكتنا؟

ـ لأن ملك انجلترا لم يستهن بنا، ولم يضع شروطاً تعجيزية، ولم يسبق له أن قصف مدينتنا بالقنابل!

هتف الرسول برغم الإعياء:

ـ ها أنتم تذكّرون بماضٍ ظنّنا أننا دفنّاه!

أجاب الباشا وهو يتأهب لإنهاء المقابلة:

ـ نحن نسامح، ولكنّنا لا ننسى!

## 21

في مقهى «الأعمدة الأربع» جلس القرينان. قال صاحب الأنف المستقيم المثبّت في السحنة السمراء:

ـ يبدو أن العلاقة مع الفرنسيس تزداد سوءاً.

تشكّى صاحب الأنف الأفطس المثبّت في السحنة البيضاء:

ـ الفرنسيس دائماً وأبداً. آه من هؤلاء الفرنسيس!

ـ لا أعرف لماذا لا يدعنا هؤلاء الفرنسيس نفني أعمارنا بسلام!

ـ الحقّ أنّهم لا يفعلون ما يفعلون برغبتهم.

استغرب صاحب الأنف المستقيم:

ـ لا يفعلون ما يفعلون برغبتهم؟

أجاب القرين ببرود:

ـ للقوّة ناموس. للقوّة سلطان على النفوس.

ـ هل تظنّ أن سلطان القوّة هو السبب؟

ـ بالطبع.

أقبل النادل بقهوتيهما المجدوحتين بـ«قطرات الترياق» فسكت صاحب الأنف الأفطس حتى فرغ النادل من وضعهما على المائدة الخشبية، ثم غمز بعينه كعادته قبل أن ينصرف. ابتسم صاحب الأنف الأفطس قبل أن يضيف:

ـ صاحب القوّة لا يطيق وجود قوّة أخرى إلى جواره.

تناول رشفة من قهوته قبل أن يكمل:

ـ بل صاحب القوّة لا يطيق وجود قوّة لا إلى جواره ولا بعيداً عنه، لأن ناموس القوّة يرفض بالسليقة وجود أيّة قوّة في الوجود كلّه!

تمتم صاحب الأنف المستقيم:

ـ أعوذ بالله! ألن يعني هذا أن القوة رجس من عمل الشيطان؟

ـ ولماذا لا تكون القوّة عملاً من أعمال الربّ؟

ـ أوضح!

ـ ربّ الأرباب غيور أيضاً، ولا يطيق أن يتباهى بالقوّة مخلوق سواه!

ـ والدليل؟

ـ ألا تراه يطيح سريعاً بكل من يرفع رأسه؟

أطلق القرين ذي الأنف المستقيم ضحكة. همس وهو يميل على رفيقه:

ـ لو لم يفعل ذلك لسحقنا الأقوياء بأحذيتهم!

ثم انحنى على قهوته متلذّذاً بنكهة البُنّ الممزوج بعطر الترياق كما يروق له أن يسمّيه قبل أن يمدّ يده ليتناول رشفة. أطلق آهة تعبيراً عن المتعة. قال وهو يتطلّع إلى السابلة:

ـ لولا وجود الترياق لأماتتنا الدنيا بالكآبة!

عقّب القرين:

ـ ولولا وجود القهوة أيضاً!

ردّد صاحب الأنف المستقيم:

ـ الكآبة وأقوياء هذه الدنيا هما علّة هذه الدنيا.

صحّح القرين:

ـ لا تنسَ المكوس!

ـ ظننت أن سادة الدنيا وبدعة المكوس وجهان لعملة واحدة!

ـ اشطرهما إلى عملتين استكمالاً للثالوث!

تساءل صاحب الأنف المستقيم:

ـ الثالوث؟

ـ الثالوث رقم الأسحار، ونحن لا نتيمّن إلاّ بالأسحار!

ردّد القرين غائباً:

ـ الكآبة والسادة والمكوس: يا له من كابوس!

من الزقاق المجاور ارتفع صوت بائع الفطائر مروّجاً لسلعته. في المقهى ساد السكون الذي يسبق صلاة المغرب. عاد صاحب الأنف المستقيم إلى سيرة الفرنسيس:

ـ هل تظنّ أنّهم سيقصفون المدينة بالقنابل؟

أجاب جليسه ببرود:

ـ إذا فعل الباشا ما يجب فعله بالعلج فلن يعيدوا فعلتهم الطائشة.

ـ هل قلت العلج؟

ـ الريّس مراد!

ـ هل تعتقد أن الباشا سيقرع قدميه العلجيتين بالفلقة؟

ـ استبعد أن يفعل الباشا ذلك.

ـ لماذا؟

ـ لأن الريّس مراد لن يعود بعدها الريّس مراد أبداً.

ـ هل بسبب ما سيلحقه من عار؟

ـ هراء!

التفت إليه القرين مستفهماً فتطلّع صاحب الأنف الأفطس إلى سماء الغروب قبل أن يوضح:

ـ السرّ ليس في العار كما يعتقد البلداء، ولكن في أمرٍ آخر لا يعلمه إلاّ الدهاة الذين احترفوا هذه المهنة!

ـ أيّة مهنة؟

ـ مهنة القرع بالفلقة!

استنكر الجليس بنظرة. ابتسم صاحب الأنف الأفطس. أضاف:

ـ في بطن القدم يوجد عرق خبيث لا يعلم مكمنه إلاّ جلاّد داهية إذا انقطع بالقرع انقطع في الإنسان الصواب!

ـ ماذا تقول؟

ـ من تعرّض لقرع الفلقة كثيراً لن يعود مخلوقاً سويّاً!

ـ هل هو خبل يصيب العقل؟

ـ شيء من هذا القبيل!

سكت القرين متأمّلاً، في حين أضاف صاحب الأنف الأفطس:

ـ والباشا أحوج ما يكون إلى مواهب العلج مراد هذا، ولا أعتقد أنه سيتنازل عنه إرضاء لهوى ملك الفرنسيس!

ـ وإذا ركب ملك الفرنسيس رأسه، فهل تندلع الحرب؟

ـ ملك الفرنسيس ليس معتوهاً حتّى يركب رأسه إشباعاً لنزوة جنونية لأنه يعرف أن الحرب ليست نزهة!

ـ حتّى لو كانت الحرب ضد الطرف الأضعف؟

ـ الحرب شرّ حتى لو كانت ضد نملة!

## 22

في خلوة بستان المنشية فكّر الباشا كيف يجني الآباء على الأبناء مرّةً واحدة، في حين جنى عليه الأب مرّتين: مرّة لأنه أبى إلاّ أن يأتي به إلى الدنيا، ومرّة أخرى لأنه أبى أيضاً إلاّ أن يورثه هو الحكم من دون الأبناء جميعاً برغم أنه ليس أكبر الأبناء سنّاً. كأنّه شاء أن يتميّز عن الأغيار بهذه البدعة كما تميّز في كل شيء.

ليس هذا فحسب، ولكن الأب أجبره أن يجني على مخلوقات أخرى ليصنع منه آثماً يوم اختار له فتاةً من بنات الأكابر ليتخذها قرينة متحجّجاً برغبته في أن يهوّن على شيخوخته بمرأى الأحفاد قبل أن يهجع إلى جوار أسلافه في التراب. وبرغم ما يُرْوى عن نيّته في دفعه إلى أيدي رعيان المواشي في الصحاري لولا تدخّل الأم، إلاّ أنه على يقين من أنه لم يكن لينتوي فعل ذلك ليتعلّم في الخلاء آداب الزهد أسوةً بالنسّاك، ولكن ليتعلّم بطولات توهّم (كما قيل) أن هانيبال لم يكتسبها إلا بسبب حياته في الفلوات.

كان ظامئاً (ظمأ غريباً) في أن يجعل منه أحمد القرمانلي، لا محمد أحمد القرمانلي. ونسي أن الجناية على الابن خطيئة لا نقترفها دون أن ندفع الثمن. نسي أن الجناية يعقبها القصاص عاجلاً أم آجلاً. نسي أن الرغبة في أن نكرّر حقيقتنا في الذريّة تجربة لا بد أن تنتهي إلى باطل لأن الأبناء لا بدّ أن يخيّبوا ظنون الآباء طال الزمان أم قصر. نسى أن الأبناء لا بدّ أن يخذلوا الآباء مهما كان الثمن. لأن الطمع في الخلود إثم. لأن الطمع في الخلود بثمار الجسد إثم مرّتين. ولا يعرف لماذا استشعر في شهوة الأب لأن يكون هو، الابن، صورة من أب ضرباً من أنانية. ليست مجرد أنانيّة، ولكنها أنانية منكرة إلى أبعد الحدود. كان على يقين أن الأب لم يحبّه يوماً، ولكنه أحب فيه نفسه ناسياً أن أحمد القرمانلي لن يتكرّر أبداً حتى لو حدثت معجزة ودخل الجمل في ثقب الإبرة. لن يتكرّر لا بالجسد ولا باللغز الآخر المسمّى روحاً. لأنه لم يعرف، برغم حكمته وجبروته وبطولاته، أن الأبناء لم يخلقوا ليكرّروا الآباء، ولكنهم خلقوا ليجبّوا الآباء. خلقوا لينفوا الآباء مرّة واحدة وإلى الأبد. ربما خامرته بعض الشكوك حول حقيقة الأبناء في نهاية المطاف كما يليق بكل الآباء (وعلّ تبنّيه لابن الصحراء «مسّي» برهان على ذلك)، ولكن اليقين أن سليقته خانته فوجد نفسه يرى في الأبناء ما رآه أسلافه قبله في الأبناء.

وفي الوقت الذي كان يجب فيه أن يرى هو في الابن خصماً رأى فيه هو (الابن) غريماً. لم ير فيه غريماً فحسب، ولكنه رأى فيه عدوّاً. رأى فيه عدوّاً لأنه أدرك أنه يريد أن يسلبه إرادته. يسلبه

حريّته. يسلبه حقيقته لينتحلها هو بدلاً عنه. ينتحلها لينال بها الخلود. يستعيرها بلا مقابل ليتباهى بها أمام الملأ قائلاً: «انظروا! إن من ترون ليس ابني، ولكنه أنا، أحمد القرمانلي، وقد نلت شباباً، وقد حققت خلوداً. وهو، هذا الفتى الذي ترون، لن يكون ذاتاً أبداً. لن يكون حرية أبداً. لأن في شرايينه تجري دمائي أنا، وفي قلبه تسرح روحي أنا!».

ولم تكن الحملة على فزّان سبباً في الكراهة، ولكنها كانت نتيجة، بل برهاناً، على الأنانية التي تسبّبت في هذه الكراهة. لقد عمل على قمعه منذ الطفولة المبكّرة مذكّراً إياه بأنه مجرّد ظلّ، ولن يفلح إلى الأبد في أن يصير أصلاً. وقد اختاره ليكون على رأس الحملة إلى «فزّان» لا ليجعله في مواجهة مع قدره، ولكن ليستخفّ به. وقد عبّر عن هذا الاستخفاف أصدق تعبير يوم أصدر قراره بإلغاء العفو على حاكم فزّان نكايةً به، ثم جاء بـ«الناصر» الشقيّ مكبّلاً بالأغلال لينكّل به في مهزلتين: مهزلة عقوبة الإعدام الكاذبة، ثم مهزلة بيعه بحديدتين تافهتين في المزاد بمجلس الديوان ليعيده حاكماً على الولاية وهو عبد!

لقد فعل ما فعل انتقاماً منه هو. فعل ما فعل استصغاراً لانتصاره، وتسفيهاً لفلاحه، واستهانةً بشخصه. وقد فهم هو ذلك فأنكره في ذلك اليوم إلى غير رجعة. وقف يومها بين أعضاء المجلس وهو يرتجف. يتصبّب عرقاً ويرتجف كطفل. يرتجف عاراً في حين ظنّ أعضاء الديوان أنه يرتجف إكباراً للأب كما يرتجفون هم في حضرته، ولا يدرون أنه يرتجف استنكاراً لأفعال الأب،

ويتصبّب عرقاً خجلاً من طغيان الأب. يومها أدرك أن أنانيته لن تقف عند حدّ، وكراهته أيضاً بلغت الحدّ، فلعن السلطان يومها كما لم يلعنه يوماً. لأنه أدرك أن السلطان هو محنة القرمانلي وليس سرّ قوّة القرمانلي. أدرك أن السلطان هو الذي دفع الأب لأن يتنكّر لروح الأبوّة لينتهك ناموس الربّ محوّلاً كل شيء في طريقه إلى مسخ. السلطان هو الذي مسخ الأب فقرّر أن ينجب من بطن المرأة ابناً ينال به الخلود المزعوم. ليس هذا فحسب، ولكن السلطان أوحى للأب بالصفقة المخجلة التي على الابن أن يتنازل فيها عن روحه للأب مقابل أن يرث السلطان (هذه اللعنة) عن الأب!

منذ ذلك اليوم صارت نوبات الغثيان تستولي عليه كلّما جاء ذكر السلطان!

ولكن الأغرب من كل شيء هو أنه لا ينسى كيف هَبَّ للاقتصاص من أهل الكيد يوم قالوا له أنهم ينتوون اختطاف السلطان من بين يديه. فهل فعل ذلك بتلك الحماسة المنقطعة النظير لأنه (لسببٍ مّا) تماهى مع السلطان إلى الحد الذي صدّق فيه أنه حقّ مكتسب حتّى لو ناله تلبيةً لمشيئة الصفقة؟

قبل أن يعرف الحزن عرف العزلة. لا يدري عمّا إذا كان الحزن نتيجة العزلة، ولكن ما يدريه أن العزلة كانت نتيجة رفضه التماهي مع الأب. كانت قصاصاً لخطيئة عصيان مشيئة الأب. رفض أن يصير ظلاً للسلف فخالف ناموس الخلف. دنّس ناموس السلالة فكفر بوصايا القداسة. لأنّ ليس عليه أن يؤمن بشيء طالما أخفق في أن يصير في سيرورة الأجيال أطول قامة من السلف.

في هذه النكبة يكمن سرّ شقاء أبناء السادة. قرّر أن يتفرّج لأن لا خيار لأمثاله سوى الفرجة. ولكن هيهات أن يستطيب التخلّي من صار صاحب إرث؛ فجاء دور الحاشية لتزجّ به في متاهات الدسائس. جنح للسلم، ولكن الأعوان حرّموا عليه التسليم بدعوى الدفاع عن النفس. قالوا أن الدنيا بأسرها ما هي إلا ساحة حرب ولا مكان فيها لمريد حياد، فلم يجد بدّاً من دخول الساحة ولكن ضدّ رموز الحاشية أنفسهم. انفضّوا من حوله برغم أنهم لم يكفّوا عن الكيد. انفضوا فوجد نفسه وحيداً. استمرأ العزلة ولم يدرِ أن العزلة فردوس أرباب، ولكنها مع الأيام تربّي في وجدان العباد النّبتة الموجعة التي تفترس الروح. العزلة إذا زادت عن الحدّ تنجب حزناً. والحزن لذّة خالق، ولكنها شرّ يبيد روح المخلوق. الحزن في سيماء صاحب الحزن جمال حقّاً، ولكنه إذا استفحل صار داء بلا ترياق. لهذا السبب يقف أولو الألباب إكباراً لصاحب الوجه الموسّم بالحزن، لأنهم يرون في سيمائه ذلك الجمال المكابر المسربل بالموت. لأن الحزن مجبول بذلك الجمال الذي يستطيع وحده أن يكون مرآة للموت. ولم يكن ليدرك سرّ الحزن لو لم يرَ هذا القَدَر مطبوعاً في عيون الكلّ سواء أكانوا أعواناً، أم أعياناً، أم قناصل الدول الأجنبية، أم أضياف الأغراب. رآه في عيونهم فكان سرّاً اتّقى به شرّهم. وربّما احتقروا تسليمه، أو استهانوا بأمره، أو تجاسروا عليه فأزالوه من طريقهم لو لم يستجر بمعشوقته العزلة، ولو لم يتشبّث بتلابيب تقيّته الحزن!

## 23

في اللحظة التي أعقبت خروج الحاجب (الذي أمره باستدعاء «الريّس مراد») انتابته النوبة: استولى عليه الانقباض فجأة، وامتدت كفّ خفيّة واعتصرت قلبه حتى نزف دماً، في حين احتبس الهواء في صدره وعجز عن التقاط الأنفاس، وكان يمكن أن يفقد الوعي لو لم تفزّ من عينيه دموع خفّفت عنه الكربة كما هو الحال مع هذا الجنس من النوبات دوماً.

ولكن اليقين الذي لم يغب عنه يوماً هو أن الأحزان أجناس. وأشرس أجناس الأحزان هو الحزن المجبول بالطلسم. عندها يصير الحزن ضرباً من رسالة، ضرباً من وصيّة مجهولة. بل هو أشرّ من هذا، لأنه نداء. نداء الأبد لا نداء دنيا. وبرغم أنه ألذّ الأحزان إلا أنه أخطر الأحزان أيضاً. وقد تساءل مراراً لماذا يرى هذا الضرب من الأحزان أخطر الأحزان. ولكن عليه أن يستنطقه طوال هذا الزمان لكي يدرك السرّ أخيراً: الحزن من جنس النداء أفدح ضروب الأحزان لأنه رسول الأبدية. الحزن من جنس النداء أفدح ضروب الأحزان لقدرته على جعل الموت زينة الحياة الدنيا لا بعبع الحياة الدنيا. حزن النداء يحمل راية حريّةٍ لا وجود لها إلاّ في الموت.

عندما دخل الحاجب وأبصر في عينيه سيماء الكابوس ارتبك ولم يعرف ماذا يفعل بنفسه، ولكنه أومأ له ليهوّن عليه ويحلّ عقدة لسانه:

ـ «الريّس مراد» ينتظر الإذن بالدخول يا مولاي!

أومأ له بالإذن فخرج ليدخل الرجل الأسطوري الذي صار بعبع

البحر كلّه بقدرة قادر، حتى أن الفرنسيين لم يكتفوا بضرورة تنفيذ إجراءات الردع ضدّه (كأن يُقرع بالفلقة)، ولكنهم طالبوا بتسليمه لهم كشرط أوّل للصلح، بل وذهب المتطرفون منهم إلى المطالبة برأسه ثمناً لاستئناف الصلح. وكان عليه أن يجاهد ببسالة حتّى يثنيهم عن عزمهم ويصرف نظرهم عن وضع شروط ليست استفزازية فحسب، ولكنها تبدو سخيفة إذا ما قورنت بإنجاز عظيم كإقرار السلم.

و«الريّس مراد» هذا علج فرنسي، كما يُروى، ولد وعاش في مرسيليا قبل أن تعبس في وجهه الأقدار بمحنة فرّ بسببها من وطنه الأم والتجأ إلى طرابلس ليعتنق الإسلام وينتحل اسم «مراد» بدلاً من «سيكارد». وبدل أن يبحث عن سبيل آخر للرزق غير الإغارة على البحر كان أوّل ما فعله بعد فراغه من مراسم التنصل من المسيحية واعتناق ديانته الجديدة هو أن اعتلى إحدى السفن الراسية في ميناء المدينة وأقلع بها في حملة جنونية استهدفت سواحل مرسيليا بالذّات لا غيرها مصمّماً أن يلقّن أبناء جلدته درساً لن يكتب لهم أن ينسوه إلى الأبد. وقد استطاع أن يستولي على سفينة تجارية فرنسية محمّلة بالبارود والذهب والعبيد قبالة سواحل المدينة. وكان أوّل ما فعله عند صعوده إلى متنها أن أمر ربّان الباخرة بإطلاق المدافع تحيّةً لشخصه المبجّل وسط ذهول بحّارة طرابلس الأشقياء الذين استقطبهم قبيل الإقلاع بساعات قائلاً أنهم سوف يدخلون على يديه الفردوس الذي لم يحلموا به يوماً، لأنهم إن لم يجدوا في البحر هذا الكنز الذي تغنّت به الأجيال فلن يجدوه في أيّ مكان. كما أنّهم لن يكتب لهم أن يحقّقوا غنيمة العمر كلّه إن لم يحقّقوها على يديه هو.

أمّا عن سرّ فراره من مسقط رأسه البحر المواجه لسواحل فرنسا فسيرة لفّها غموض كثيف. هذا برغم أن صالح بك رئيس بحرية طرابلس في تلك الأيام روى عنه علّة لم تقنع أحداً تقول أن الأعداء كادوا له وزجّوا به في السجون بسبب قديم قدم الإنسان ألا وهو الحسد. وعندما كان أهل البحر يستخفّون بهذا السبب كان يثور ولا يملّ من أن يلجم أفواههم بعبارة صارت في فمه أمثولة بسبب التكرار تقول: «كيف لا يحسدني أبطال البحر على بطولاتي وقد كان الحسد سبب قتل قابيل لأخيه هابيل؟».

وكان لا يملّ من التباهي بانتمائه إلى هذا التنّين المخيف (البحر) ويقول أنه زعق في وجه الدنيا أوّل ما زعق على ظهر باخرة، وعاش طفولته على ظهر باخرة، وعرف النساء أوّل ما عرف على ظهر باخرة، واتخذ لنفسه قرينة على ظهر باخرة، وكان يمكن أن ينهي أيّامه السعيدة على ظهر باخرة أيضاً لو لم يتدخل القدر الحسود (كان يروق لهذا الشقيّ أن يصف القدر بالحسد أيضاً) فيبعث برسلٍ وضعوا الحديد في يديه وقدميه وخرجوا به من فردوسه البحر ليقذفوا به في سجن العفونة والرطوبة والظلمات الواقع في يابسةٍ لا تقلّ عفناً ولا رطوبة ولا ظلمة عن السجن. وكان يروق له أن يختتم أسطورته قائلاً: «لم يذق طعم الحياة أبداً ذلك المخلوق الذي لم يولد بسرّةٍ مشدودةٍ إلى قاع البحر!».

## 24

جلس على أريكة في مواجهة الباشا فتبدّى في المقعد الوتير أقصر قامة وأكثر بدانة. رمق الباشا بعينيه السوداوين الماكرتين قبل أن يتلقّى سؤال الباشا:

ـ خبّرني يا ريّس مراد: ما الذي يجعل من الإنسان مخلوقاً حزيناً؟

أجاب كأنه يقرأ الجواب في قرطاس أو كتاب:

ـ الحقيقة يا مولاي!

ـ وما الذي يجعل منه حكيماً؟

ـ الصفعة يا مولاي!

ـ الصفعة؟

ـ لا يصير الإنسان حكيماً حقّاً ما لم تلقّنه الأقدار درساً يا مولاي.

غاب الباشا لحظات. أضاف:

ـ وما الذي يجعل من الإنسان بطلاً؟

ـ الانتقام يا مولاي!

قرأ في عين الباشا استفهاماً فأضاف:

ـ الشهوة إلى الانتقام يا مولاي.

هيمن بينهما صمت. تبادلا نظرات غامضة. كان سليل الأعلاج مستنفراً، ولكن هدوء البال طبع سيماء الباشا. عاد يتساءل:

ـ ما الذي يجعل الإنسان ينكّل بذوي القربى؟

تردّد «سيكارد» زمناً. اختلس إلى الباشا نظرة. أجاب:

ـ الظلم يا مولاي. أمرّ شيء في الدنيا ظلم ذوي القربى!

الباشا: هل أخطأوا في حقك سهواً أم عمداً؟

سيكارد: بل بمكيدة مدبّرة يا مولاي!

الباشا: هل كنت من أصحاب الثروة فطمعوا في مالك؟

سيكارد: ليت الثروة هي السبب يا مولاي.

الباشا: هل حسدوك على صيت أم على جاه؟

سيكارد: بل حسدوني على امرأة يا مولاي.

أفاق الباشا من غيبته لأوّل مرّة. استنكر:

- امرأة؟

- بلى يا مولاي..

طأطأ ربّ البحور قبل أن يستدرك همساً كأنه يحدّث نفسه:

- الحقّ أنها لم تكن امرأة...

- ماذا؟

- أعني أنها كانت أكثر من امرأة بكثير. كانت..

سكت فشجّعه الباشا بنظرة. أكمل العبارة التي ماتت على شفتيه:

- حوريّة!

- حوريّة؟

- حورية من حوريات البحر يا مولاي. بل حوريّة من حوريات الجنّة اللائي يتحدّث عنهن الكتاب!

- أيّ كتاب؟

- القرآن يا سعادة الباشا!

ابتسم الباشا. فرّ ببصره بعيداً. قال:

ـ بلغني أنّك سليل بحر منذ المهد. .

ـ وكان بالإمكان أن أبقى سليل بحر إلى اللّحد يا مولاي لولا تدخّل الأشقياء. .

قاطعه الباشا بإشارة قائلاً:

ـ دعنا من الأشقياء الآن وحدّثني عن الحوريّة.

زفر الربان أنفاساً سخيّة على طريقة إنسان يتأهّب لرواية سيرة طويلة. قال:

ـ كانت هبة من السماء يا مولاي. بل هي هبة من هبات الربّ يا مولاي. هبة من النوع الذي يجعلنا نؤمن بوجود الربّ. .

قاطعه الباشا:

ـ بلغني أنّك انتزعتها من أحضان رجلها عندما استوليت على السفينة واقتحمت مقصورة ذلك السيد مدجّجاً بلفيف من قراصنتك!

ـ هذا ليس صحيحاً يا مولاي. .

كان سليل البحور منفعلاً، يضيق صدره بأنفاسه كالمصاب بالرّبو. قال:

ـ هذا ما يقوله السفلة يا مولاي. والحقيقة عكس ما يقولون لأنها هي التي اقتحمت عليّ مقصورتي لا أنا من قام باقتحام مقصورتها. لقد أنقذتها من الغرق بعد أن تحطّم السفين الذي كانت تقلّه مع عائلتها. وقد اتخذت قرار البقاء معي بخيارها، لأنها. .

سكت. كان وجهه مغموراً بحمرة قانية كأنّ الدمّ سيفزّ من

وجنتيه. أنفاسه تتلاحق كأنه قطع عشرات الفراسخ جرياً. حدجه الباشا فأكمل العبارة التي وقفت غصّة في حلقه:

ـ لأنها أحبتني!

ـ أحبتك؟

ـ بلى يا مولاي. قد يبدو غريباً أن تقع حسناء في جمالها في حبّ ربّان يسمّيه الناس قرصاناً، ولكن ما أرويه يا مولاي هو الحقيقة!

تساءل الباشا بنبرة غريبة:

ـ ما الذي يدفع حسناء بجمال أسطوري (إذا كان ما تقوله صحيحاً) للارتماء في أحضان قرصان؟

تردّد الربّان مرة أخرى. لاحظ الباشا كيف تشبّث بمسندي الأريكة لأنه لم يعد يعرف ماذا يفعل بيديه من فرط الانفعال. قال كأنه يلفظ بصقة:

ـ الأسنان. السرّ في الأسنان يا مولاي!

حدجه الباشا بدهشة. تساءل:

ـ هل قلت الأسنان؟

ـ بلى يا مولاي. إنها الأسنان!

انتظر الباشا أن يفكّ الطلسم ولكن البحّار لاذ بالصمت. تساءل الباشا:

ـ ماذا تريد أن تقول؟

بدأ يرتجف. قال:

ـ لقد فتحتُ قارورة في حضرتها بأسناني!

ساد صمت. انتظر الباشا أن يستكمل شرح الأحجية ولكن «سيكارد» لاذ بالصمت مرّة أخرى. تكلّم الباشا:

ـ هل تريد أن تقول أنها تعشّقتك لأنك فتحت قارورة بأسنانك؟

هزّ البحّار رأسه بالإيجاب. وفجأة أطلق الباشا ضحكة. ضحك الباشا يومها ملء شدقيه. ضحك ضحكاً منكراً حتى أن الحاجب اقتحم المكان ظنّاً منه أن أمراً كريهاً قد حدث. ولكنه عاد فتوارى ما أن قطع الباشا قهقهته الرهيبة. قال وهو يخرج من جيبه منديلاً ويمسح دموعه:

ـ اعترف لك بالحقّ. هذا عمل يليق بالحسناء حقّاً. بالحسناء فقط تبلغ غرابة الأطوار حدّاً ترفض فيه ربط مصيرها ببطل أمات التنّين في سبيلها، ثم تذهب لتهجع في مخدع خسّيس ألقى في أذنها بأكذوبة أو نكتة!

أمّا «سيكارد» فيبدو أنه لم يسمع ضحكة الباشا ولم ينتبه لتعليقه. كان غائباً عندما قال:

ـ لقد خالفت وصيّة الأب فاقتصّت منّي الأقدار!

تساءل الباشا:

ـ وصيّة الأب؟

ـ إذهب برفقة الحسناء إلى المخدع، ولكن إيّاك أن تذهب برفقة الحسناء إلى بيت الربّ! هذا ما قاله لي الأب يا مولاي!

أطلق صوتاً كحشرجة حيوان يُذبح قبل أن يضيف:

ـ الرجال لا يغفرون للرجل امتلاك الزهرة. الرجال لا يغفرون للرجل الاستئثار بالحسناء. وقد تمكّنوا منّي بسبب هذه الزلّة التي لن أغفرها لنفسي!

حشرج بفحيحه المريب مرّة أخرى قبل أن يضيف:

ـ من يخفي وراء بابه حسناء كمن يخفي في كمّ جلبابه حيّة يا مولاي!

لوّح الباشا بيده في الهواء قبل أن يحتكم إلى معجم الفرنسيس أنفسهم:

ـ بالطبع، بالطبع: Chercher la femme!.

ثم مستدركاً:

ـ ولكن هل تريد أن تقول أنها خذلتك في محنتك مع الأعداء؟

انفرجت شفتاه عن أسنان نضيدة، مصفوفة كأسنان المشط، حقّ له أن يغوي بها النساء كما حقّ له أن يتباهى بها أمام الرجال:

ـ ليتها اكتفت بالانتقال إلى أحضان العدوّ يا مولاي، ولكنها أنجبت له من بطنها ذريّةً بخلت بها عليّ!

هتف الباشا:

ـ اللعنة!

ثم استغفر همساً وقرأ تميمة سرّاً. فرّك مسبحته الفضية بين يديه قبل أن يقول:

ـ في النهاية عليك أن تكون لها ممتناً لأنها حررتك من أوهامك، وصرت بفضل خيانتها بطلاً!

ـ ما لم أستطع أن أغفره لها ليس دخولي السجن بسببها، ولكن حرماني من البحر يا مولاي!

ـ ولكنك ها قد عدت إلى فردوسك من أوسع الأبواب إلى درجة تجاسرت فيها على الاستهانة براية الإمبراطورية الفرنسية وأجبرت ربّان سفينة الإمبراطور على أن يطلق إحدى وعشرين طلقة احتفاء بشخصك الأسطوري!

ـ فعلت ذلك ردّاً للاعتبار يا مولاي، ولكن ليس من باب الاستهانة بعلم بلادي، ولا من باب الانتقام من جلاّدي!

ـ هذا ما تقوله أنت، أمّا أنا فكان عليّ أن أخوض معهم حرباً حقيقية كي أقنعهم بأنّك مجرّد مهرّج أتقن دوراً في المهزلة!

ـ ما لن أنكره أبداً أني مدين بالحياة لمولاي.

قال الباشا وهو يتأهب لإنهاء المقابلة:

ـ وصيّتي لك أن تكفّ عن الاستفزاز في عرض البحر، وأعلم أن الفرق بين المهرّج والبطل شَعْرة!

## 25

بعد صلاة العشاء، في أحد أركان مقهى «الأعمدة الأربع» نشب شجار أمام مرأى ومسمع من لفيف الأكابر. فقد اعتاد الأعيان أن يلتئموا في المقاهي الكثيرة المنتشرة في المدينة في العشيّات، أو في الأمسيات قبيل صلاة المغرب. ولكن الأغلبية كانت ترتاد هذه الزوايا بعد صلاة العشاء لقضاء السهرة في العلن، والفرار من طغيان الزمان في السرّ. وكان الأعيان أمْيَل للانتماء إلى الفئة الأخيرة التي لا تروق

لها اليقظة إلاّ في الهزيع الأخير من الليل. وقد نصّب شيخ البلد من نفسه إماماً لمجلس الأعيان هذا بمقهى «الأعمدة» بعد أن تخلّى عن مجلسه في مقهى «سوق الرّبع» منذ مدّة طويلة بعد أن تحوّل المقهى في الأيام الأخيرة وكراً للدهماء من قطاع طرق نزحوا من الدواخل، أو لصوص يتنكّرون في أزياء القراصنة، أو دهاة احتيال يدّعون ممارسة التجارة. وقد ودّع هذا الشبح الغامض ركن سلواه القديم قائلاً أن الإنسان لا يجلس في المقاهي لقتل الوقت، ولكن لعقد صفقات أو كسب صداقات (لأن الفوز بصديق في رأيه ما هو إلاّ صفقة أيضاً)، فإن أعجز الإنسان الكسب فليس عليه أن يخسر اللّهو وهو أقل الإيمان. أمّا أن يرتاد الإنسان المقهى ليخسر الوقت، ويخسر إلى جانب الوقت الصيت في مجمع الرعاع هذا، بل ويخسر إلى جانب الصيت ما كسب بعرق الجبين بسبب المتسوّلين المتنكرين في أثواب التجّار، فهذا هو الحمق الذي حذّرت منه وصايا الأجيال!

وقد أقبل ذلك الشيخ الوقور (الملفوف في العباءة المهيبة المسمّاة في لهجة القوم «جرداً») بعد أن دفع لربّ السماوات والأرض القسط الخامس والأخير من دَيْن ذلك اليوم في جامع درغوت المجاور، وتصدّر في المقهى جلسة الأكابر عندما اقتحم درويش الأناضول المقهى ووقف فوق رأس الشيخ بعد أن طاف الأركان كلّها يحيي من راق له أن يحيي، ويبصق في وجه من لا يروق له أن يحيي، وقد يتنازل عن عليائه فيمدّ يده المباركة (الملوّثة دائماً بصنوف العفونة) ليصافح بعض الأخيار. ويبدو أن مزاج ذلك «الملاك المنزّل» (كما يروق للبسطاء أن ينعتوه) لم يكن على ما يرام في تلك الليلة، لأن

الدرويش وإن تفضّل بتحية بعض الضبّاط غمزاً إلاّ أنه بخل بيده على الجميع. لم يكتفِ بذلك ولكنه تقدّم من الشيخ وبصق في فنجان قهوته باستفزاز استثار الهرج في المكان. ثم انحنى على أذنه ليقول له بصوت عالٍ سمعه حتى السابلة: «هذه تميمة سوف تطهّرك من آثامك الكثيرة!». ولكن الشيخ لم يستجب للاستفزاز. تجهّم وجهه بالشحوب، ثم ابتسم فجأة ليقول بأعلى صوته: «البصقة من فم الدرويش غنيمة، والسبّة من لسانه حجاب! تستور يا سي محمود تستور!».

ثم تناول الفنجان وارتشف من القهوة الممزوجة بالبصقة. ويبدو أن هذا البرود في مسلك شيخ البلد ضاعف من حنق الدرويش، فما كان منه إلاّ أن مال على أذن الشيخ ليقول بصوت عالٍ: «إذا كنت لا تريد أن تخسر يوم الحساب فوصيّتي لك أن تكفّ عن تقبيل مؤخرات الأعلاج!». ساد في المقهى الذهول ملفوفاً في ثنايا الصمت. ولكن الدرويش ما لبث أن أضاف: «ألا يكفي أنك لم تبخل عليهم بمؤخرتك يوم نصّبوك على هذا البلد شيخاً؟». هذه المرّة لم يستجر الناس بالصمت، ولكن استنكر أكثر من صوت. الشيخ وحده لم ينبس. استمرّ يبتسم بغموض ويرشف من قهوته الممزوجة ببصقة الدرويش. تدخّل أحد الأعيان أخيراً. مخاطباً الدرويش: «يحسن بسيدي محمود الآن أن ينصرف. هذا يكفي!». ويبدو أن الدرويش كان ينتظر هذه الحجّة لأنه بدل أن يلعن الشيطان وينصرف توعّد الرجل بسبّابته قائلاً: «أنت تقول هذا يا أفندي منصور لأن دماء النصارى تجري في عروقك أيضاً. كلّكم أبناء زنا أنجبتكم أمهاتكم من أصلاب الأعلاج!».

ساد الذهول مرّة أخرى. ولكن شيخ البلد انتصب فجأة وهمس في أذن الدرويش عبارة لم يسمعها أحد ظلّت مجهولة برغم نتائجها التي لا تُنسى في تاريخ مقهى «الأعمدة الأربع». لأن الدرويش أصابه بعدها شلل استمرّ طويلاً. ثم احمرّ وجهه حتّى ظنّ روّاد المقهى أن الدّم سيفزّ منه. بعد لون الدّم غزت السيماء شحوب حتى أيقن الجميع بأن الرجل سيقع مغشياً عليه. ولكن هذا العفريت لم يقع، بل فكّ تكّة سرواله ببطء شديد. من بين فخذتيه أخرج عضلة فظيعة كأنها غرمول حصان. تقدّم بها وهي تترجرج بين يديه كأنها حيوان كريه، ثم وضعها على المنضدة في مواجهة شيخ البلد وسط ذهول الجميع. قال وهو يلوّح بها في وجه الشيخ كأنها ثعبان: «في المرّة القادمة سأحشو هذا الحيوان في استك يا شيبة النحس!».

## 26

في بلاط الأستانة قال السلطان يخاطب الأرناؤوطي:

ـ هل تدري لماذا وقع اختياري عليك لتكون لي يداً خفيّة لاستعادة الإيّالة الطرابلسية إلى حظيرة الإمبراطورية؟

ركع الأرناؤوطي حتى كاد جبينه أن يلامس البلاط قبل أن يقول:

ـ كلاّ يا مولاي!

قال السلطان:

ـ لأنّك أرناؤوطي!

ركع الأرناؤوطي مرّة أخرى دون أن ينبس في حين أضاف صاحب الأستانة بلهجة ذات معنى:

ـ بين الأرناؤوط وآل القرمانلي ثأر لا يجب أن تمتدّ إليه يد الزمان.

حدّق السلطان في عيني القرصان الأرناؤوطي بعينيه الماكرتين قبل أن يضيف:

ـ لقد انتزعوا من بين أيديكم أجمل الممالك وأكثر بلدان الأرض ثراء!

تكلّم القرصان الأرناؤوطي لأوّل مرّة:

ـ لقد فعلوا ذلك غدراً يا مولاي!

ـ كان طعن خليل باشا الأرناؤوطي عملاً غادراً حقّاً، ولكن متى كان سلطان هذه الدنيا يُنال بغير طعنة الغدر؟

ركع القرصان أرضاً فأضاف السلطان:

ـ لقد حاول سلفي أن يردّ لكم الغنيمة من موقعه في هذا المكان، ولكن الجهود كلّها انتهت إلى الفشل لسرّ لا يعلمه إلاّ علاّم الغيوب. ولكن هذا لن يعني أن نسكت على صولات آل القرمانلي في البرّ والبحر أطول مما فعلنا.

هتف الأرناؤوطي:

ـ سوف نستعيد فقيدتنا بفضل حكمة مولانا.

ـ استرجع فقيدتنا بكل حيلة، ولكن إيّاك أن تخالف ناموس اللّعب!

تعجّب القرصان:

ـ هل قال مولانا «اللّعب»؟

ـ أجل، أجل. للعب ناموس لا يعطينا الحقّ في أن نشعل حرباً من أجل استرداد ولاية سيما في مثل هذه الظروف التي استأسد فيها النصارى علينا: الصقالبة من الشمال والشرق، وعتاة الفرنجة من الغرب.

ـ الحقّ أني لم أفهم ما يريد مولاي.

ـ ما أريده هو أن تستعيد عرش طرابلس مستعيناً بسلطان الدّهاء لا بأنصال السيوف. تستّر بجبّة التجارة، ودبّر مكيدة وسوف تجد في رجالي هناك سنداً لك. ولكن إيّاك أن تنسى أن طلب المجد مجازفة قد تكسب بها عرشاً، وقد تخسر بسببها رأسك!

زحف القرصان فوق البلاط على ركبتيه راكعاً. قال:

ـ كل أمجاد الدنيا تهون إذا قورنت بحسن ظنّ مولاي!

سكت السلطان. تأمل فصّاً أخضر مطوّقاً بخاتم الذهب قبل أن يلقي في وجه قرصانه بوعيده:

ـ إذا أفلحت سلّمتُ لك العرش، وإذا أخفقتَ قطع القرمانلي رأسك!

زحف القرصان ليقبّل ثوب السلطان، ولكن صاحب الأستانة استوقفه بإشارة من يده:

ـ هذا ليس كل شيء!

انتظر لحظة قبل أن يضيف:

ـ إذا قُبض عليك وكشفتَ تحت هول التعذيب سرّنا فيجب أن تعلم ما سأفعله بك!

تمتم القرصان:

- أعلم يا مولاي.

ساعتها فزّ السلطان واقفاً. خطا في البلاط ذهاباً وإياباً قبل أن يقول:

- كلاّ، كلاّ. أراهن أنّك لا تعلم، لأنك لو كنت تعلم لتمنيت أن تبتلعك الأرض بدل أن تتمنّى الذهاب للاستيلاء على عرش طرابلس. فهل تعي جيّداً ما أقول؟

همهم القرصان بعبارة مبهمة، في حين أضاف السلطان:

- لقد سلخ أحمد القرمانلي جلد سلفك خليل باشا، ثمّ شوى لحمه ليطعمه لفرسانه قبل أن يحزّ رأسه عن جسده ليعلّقه على باب زنّاته. هذا ما سأفعله بك أيضاً فيما لو أفشيت السرّ تحت فنون التعذيب التي لا يتقن أعلاج القرمانلي شيئاً كما يتقنونها؛ هذا مع فارق صغير بين فعلة القرمانلي بخليل باشا الأرناؤوطي وبين ما سأفعله بك: أحمد القرمانلي سلخ جلد خليل باشا ميتاً، أمّا أنا فسوف أسلخ جلدك حيّاً. أحمد القرمانلي شوى لحم خليل باشا بعد ذبحه، أمّا أنا فسوف أشوي لحمك حيّاً. هل تدري ماذا يعني أن يُسلخ جلد الإنسان حيّاً؟ هل تدري ماذا يعني أن يُشوى لحم الإنسان حيّاً؟

كان القرصان يرتجف، ولكن السلطان لم يرحمه:

- لا تظنّ أن وقوعك في يد القرمانلي إفلات من يدي، لأن يد القرمانلي هي يدي أيضاً برغم الخلاف بيننا؛ لأن ناموس اللعب يجيز ما لا يجيزه أيّ ناموس دنيوي آخر. ناموس لعبتنا يجيز لنا أن نتفق

في خلافنا، كما يجيز لنا أن نختلف في وفاقنا. لأننا لن نتقن أدوارنا كما ينبغي إن لم نحسن ذرّ الرماد في عيون الرعيّة البلهاء التي لا ترى في الاختلاف ائتلافاً، ولا ترى في الائتلاف خلافاً.

التقط أنفاسه. توقّف عن السعي ذهاباً وإيّاباً. أضاف:

ـ لو كنتُ مكانك لقطعتُ لساني بيدي قبل أن أركب البحر لاسترداد عرش طرابلس!

ثم استدار ليولّيه ظهره. نزع من بنصره الخاتم المتوّج بالفصّ الأخضر. قال وهو يمسك به بأصابعه:

ـ لاستكشاف دروب القوم تستطيع أن تستعين بالبك محمود راغب لأن الدراويش ملّة فوق الشبهات، أمّا لجسّ نبض الرعيّة فالمفتي سيكون لك ساعداً أيمن، فإن أعجزتك الحيلة فصالح بك رئيس البحرية سيهبّ لنجدتك. يكفي أن تبرز له هذا الفص!

ألقى بالخاتم أرضاً، فانقضّ عليه القرصان زحفاً على أربع كما ينقضّ الكلب على عظمة رماها له سيّده!

## 27

يتحدّث الناس عن العداوة بين شيخ البلد ودرويش الأناضول فيقولون إنها بدأت عقب وصول الدرويش من بلاد الشرق بأشهر. وهو الزمن الذي يوافق الحملة التي شنّها الدرويش على الأعلاج الذين يحكمون حصن عظيم من حصون المسلمين (كما عبّر) متستّرين وراء حفنة من عملاء أهل الديار (أمثال شيخ البلد) لينهبوا الثروات، ويدنّسوا الحرمات، ويرفلوا في الترف، في حين يرزح

أبناء البلد تحت وطأة المكوس، نصيبهم من الغنيمة الجوع، ورسالتهم في الدنيا أن يخدموا السادة، وملجأهم لنسيان الهمّ هو قتل أمّ لهم خالدة أوصى بها خاتم النبيين خيراً هي النخلة التي يستحضرون من قلبها خمرة «اللاقبي» طلباً للغيبوبة!

وقد أثارت حملته بلبلة حقيقية في المدينة لا لأن ما ردّده رسول الأناضول حقّ، ولكن لأن صاحب الحملة درويش. والدرويش في عقيدة أهل البلاد مخلوق منزّه عن الكذب لأنه مخلوق منزّل حتى كاد أن يؤمن به الناس رسولاً لا يختلف عن الرسل. بل كثيراً ما آمنوا به في بعض الأنحاء أكثر من إيمانهم بالرسل وخلعوا عليه نعوتاً ربوبية مثل «الملاك المتنكّر في جرم الإنس» حتى أنهم أباحوا له ما لم يكن بوسعهم يوماً أن يبيحوه لرسول كغضّ الطرف عن أفعالهم التي تحرّمها نواميس الأخلاق مثل وثوبهم على النساء على مرأى ومسمع من الملأ ليقينهم بأنهم لا يفعلون ذلك إشباعاً لشهوة حيوانية، ولكن تلبيةً لنداء سماوي، أو استجابة لرسالة خفيّة.

وأهل البلاد الذين اعتادوا أن يروا في كل مريد أقبل من غرب الأرض ساحراً، كانوا يرون في كل مريد أقبل من شرق الأرض درويشاً منزّلاً. وهو إيمان أعطى للكثيرين من الأدعياء وأهل الخداع الحقّ في ارتداء مسوح القدّيسين زوراً والذهاب للضحك على ذقون بلاد الغرب إلى حدّ صارت فيه هذه التجربة مثلاً يُضرب للتدليل على إتقان فنون البهتان في مَثَلٍ ما زال يجري على الألسن إلى اليوم هو: «تغرّب وأكذب!» كناية عن يسر تصديق أهل الغرب لرسل الكذب. ليس هذا فحسب، ولكن أهل الشرق استغلّوا شعرة

شمشون هذه فشنّوا حملة سرّيّة محكمة وطويلة النفس بهدف زعزعة ثقة هؤلاء البلهاء بأوطانهم ليتيسّر لهم إمّا الاستيلاء عليها، أو استغلال أهلها وهو أضعف الإيمان، مردّدين خرافات اختلقوها تتحدّث عن شرور غرب كل أرض، وخيرات شرق كل أرض بالمقابل بدايةً بالرسالات السماوية التي لم يصر لها مهداً إلاّ شرق الأرض، ونهايةً بالموت الذي لم يأتِ يوماً إلاّ من غرب الأرض. ولم يتوقفوا إلى أن انتهوا إلى نسج خيوط أمثولة (كما تنسج خيوط المكيدة) تقول أن الهجرة التي لم تتجه صوب الشرق لا خير فيها، والأجيال لم تهاجر صوب غرب الأرض إلاّ لتدفن موتاها أو لتغترب عن دنياها. والدليل هو آثار قدماء المصريين الذين لم يدفنوا ملكاً واحداً من ملوكهم شرق النيل، بل أقاموا بيوتهم الأبدية غرب النهر في تخوم الصحراء التي وردت في صحف التاريخ تحت اسم «الصحراء الليبيّة»، دون أن يدري هؤلاء أن زماناً سيأتي ليميط اللثام عن الأكذوبة ليكتشف العالم بأسره أن الغرب الذي جعل منه أهل الشرق قريناً للشؤم في أسطورة «عنقاء مغرب» لم يكن في حقيقة الأمر سوى عنقاء التكوين، بل وطلسم الخلق، الذي أبدع اللغز الذي ما زال يجري على ألسنة الأمم باسم «الروح» عندما حدثت المعجزة التي زاوجت بين نور السماء العارية أبداً وعزلة قرينتها الصحراء المغتربة دوماً، قبل أن يجيء اليوم الذي ستهاجر فيه هذه الحكمة شرقاً لتضع بيوضها في مختلف الأعشاش؛ هذه الأعشاش التي احتضنت بيوض العنقاء في المهد بسبب مناخ الأرباع المناسب ظلّت تتزلزل بوساوس الحنين إلى الوطن الأم كقدر لا شفاء منه كما هو الحال مع مصريي الأمس الذين لم يجدوا سبيلاً لمداواة الدّاء غير

الارتحال غرباً كلّما حانت ساعة الحساب ليضعوا العصا هناك في بيت «منتتو» الأبديّ. أمّا في أوطان الشرق الأبعد فإن علل الحنين لم تكن أقل بأساً مما كانت عليه في بلاد النيل؛ لأن أهل تلك الأوطان لم يكفوا يوماً عن الهجرة إلى أوطان الغرب منذ هجرات الفينيقيين في الأزمان التي سبقت التاريخ، إلى هجرات قبائل بني هلال وبني سليم. وهي هجرات لم تكن لتتدفّق على غرب الأرض السيء الحظ (سيء الحظ بسبب هجرة المياه من سمائه أساساً) لولا نداء الأرض، لولا وسوسة الروح في توقها للعودة؛ العودة إلى الوطن السرّ، والغياب في وجدان الأرض بالالتئام بسرّة الأرض لنيل الخلود الذي لا يُنال دون التماهي بالأرض الأم لإدراك كلمة السرّ التي تجري في عروق الأرض، بين طين الأرض وماء الأرض.

## 28

في بلاط السراي دخل الحاجب مكتب الباشا ليعلن:

- رسول مولانا إلى الصحراء ينتظر الإذن بالدخول يا مولاي.

أذن له الباشا بإشارة دون أن يصحو من غيبته، هذه الغيبة التي أباح تسامح الباشا نحو حاشية القصر أن تتندّر فتسميها «غيبوبة» دون أن تنتظر قصاصاً. وهو ما لم تجرؤ على فعله زمن أحمد الأكبر الذي أدبر. وبالفعل كانت غيبة الباشا في ذلك اليوم أشبه بالغيبوبة، لأنه لم يعد إلى رحاب القصر حتى بعد أن أقبل عليه رسوله إلى الصحراء، ووقف في حضرته لا يحرّك ساكناً، ولا يصدر صوتاً، كأنه شبح من أشباح هذه القارّة المأهولة بالأشباح التي يطلق عليها الناس اسم الصحراء.

انتبه الباشا أخيراً ليشير له بالجلوس. تطلّع إليه بفضول لجوج كأنه يحاول أن يستنطق الذاكرة ليستعيد السيرة التي تتعلّق بهذا الرجل. ويبدو أنه أخفق في عراكه فعبس وطأطأ. انتظر أن يهبّ الجليس لنجدته، ولكنه لم يفعل. تظاهر بقراءة صحيفة من كدس قراطيس مصفوفة على منضدة مكتبه. ثم رفع رأسه وسأل:

ـ كيف يبدو حال الناس هناك؟

كان الرسول ملفوفاً في ثنايا عباءة ناصعة تحجب رأسه وجسده وتخفي حتى ساقيه. وجهه مزبور بسيماء صارمة. بشرته لوّحتها الشمس وأهوية الصحراء الجنوبية. منتصب الأنف، كثّ الشارب. في عينيه يقظة المهاجرين ممزوجةً بسكينتهم أيضاً. قال وهو يرنو لا إلى الباشا، ولكن إلى نقطة مجهولة فوق رأس الباشا:

ـ وأي حال يمكن أن يُنتظر من وطنٍ خاوٍ يتسكّع فيه اللهب نهاراً وتزحف في ربوعه الأفاعي ليلاً يا مولانا؟

ابتسم الباشا باستخفاف. قال وهو ما يزال ينحني فوق كدس الصحف فوق مكتبه:

ـ وبرغم ذلك لا يعدم وجود الناس في هذا الوطن أيضاً.

شيّع رأسه ليضيف:

ـ الناس يعيشون حتّى في الجحيم!

ـ الحقّ أني لم أجد في الصحراء أناساً يا مولانا، ولكني وجدت في تلك الأرض أشباه ناس..

التقط أنفاسه ليضيف:

- تستطيع يا مولاي أن تقول أني وجدت في الصحراء أشباحاً لا أناساً!

- أشباحاً؟

- في الصحراء يا مولانا يستحيل التفريق بين الناس وبين الأشباح!

- هل هذه أساطير الأولين؟

- كلا يا مولانا. لقد قابلت أناساً كثيرين تبدّوا لي أناساً، ولكن سرعان ما اكتشفت أنهم مجرّد أشباح. جالست أشياخاً وعقلاء وشعراء وأصحاب كهانات أيضاً، ولكنّهم تبدّدوا في اليوم التالي كما يتبدّد السراب يا مولاي. لقد نزلت ضيفاً على قبائل كاملة، ونحروا على شرفي أنعاماً ليطعموني من لحومها بأشهى الطعوم، ولكن هذه القبائل انقشعت عندما استيقظت في الصباح كأنها أضغاث أحلام!

استنكر الباشا:

- انقشعت؟

- بلى يا مولانا. انقشعت دون أن تترك وراءها حتّى الأثر.

- الأثر قد يمحوه الريح، والقبيلة ربّما كانت رؤيا أو حتّى أضغاث أحلام!

- كلاّ، يا مولاي، كلاّ. هذا افتراض يكذّبه طعم الطعام في فمي. اعترف يا مولانا بأني لم أذق في حياتي كلّها طعاماً ألذّ من الطعام الذي استضافتني به قبائل الجنّ تلك!

سكت الباشا. قال بتسليم:

ـ ماذا أقول؟ المؤمن يجب أن يعترف بوجود الجان أيضاً ما دام ذكرهم قد ورد في القرآن إلى جوار الإنس!

ـ ما أردت أن أقوله يا مولاي هو أن العسر كلّ العسر في إيجاد الفرق بين الجان وبين الإنسان في الصحراء.

ـ لا بدّ أن يتشبّه الناس بالجان في الصحراء إذا قرّروا أن يتخذوا من الخلاء وطناً. ولكن. . دعنا من هذا وحدثني عن خيبة المسعى، لأن البُغْيَة التي خرجت إلى الصحراء في طلبها لم تمثل بين يديّ!

تنهّد الرسول عميقاً، ولكن بصره ظلّ معلّقاً في الفراغ المجهول المعلّق فوق رأس الباشا. قال:

ـ تلك سيرة لن تختلف كثيراً عن سيرة ألف ليلة وليلة فيما لو سمح لي مولانا برواية تفاصيلها.

ـ دعك من التفاصيل!

ـ أخشى أن مولاي لن يفهم النتيجة حقّ الفهم فيما لو أسقطنا من السيرة التفاصيل!

ـ لو جلستَ في هذا الكرسي الذي تراني فيه الآن لما كان عندك لا الوقت ولا الصبر لتسمع من أفواه الناس حتّى العبارة فكيف بالتفاصيل؟

ـ لا سمح الله أن أتخيّل مجرّد التخيّل الجلوس في كرسي جلس فيه مولانا. .

قاطعه الباشا:

ـ أوجز!

ـ صعدت الجبل للاستفهام من شيخ المحاميد عن مكانه، ولكن شيخ المحاميد ركب رأسه!

ـ ركب رأسه؟

ـ قال أنه لن يدلّ رسول من رسل أهل السلطان حتّى على سبيل، فكيف يدلّه على إنسان أجاره زعيم القبيلة الذي سلف وقطع عهداً لسلفكم الأكبر أن يضعه في بؤبؤ العين؟

ـ وما حجّته في ذلك؟

ـ حجّته يا مولاي في يقين يقول أن السلطان لا يبعث برسول إلى الصحراء بحثاً عن رجل إلاّ ليقطع رأسه!

ـ ماذا فعلت بعد ذلك؟

ـ حاولت أن أستعين بالمال يا مولاي كما أوصيتموني، ولكنّي اكتشفت أن للمال سلطان على نفوس أهل المدن، ولكن لا سلطان للمال على نفوس أهل الصحراء!

ـ ماذا تقول؟

ـ أهل الصحراء لا يعرفون ماذا يفعلون بالمال يا مولاي حتّى أنّهم لا يجدون ما يفعلون بالذهب إلاّ أن يدفنوه في الأرض لا ليكنّزوه كما يفعل أهل المدن، ولكن ليتّقوا شرّه. وقد أخبرني بعض تجّار القوافل الذين يأتون بهذا المعدن من أعماق القارّة أن بعض القبائل تشترط على أصحاب القوافل المحمّلة بالتّبر عدم المبيت في الأراضي التابعة لها اتّقاء لشرور هذا المعدن.

صاح الباشا بفارغ صبر:

ـ ولكن هل اهتديت إليه في النهاية أم أخفقت؟

تنازل الرسول أخيراً وهبط ببصره من عليائه في المجهول فاكتشف الباشا أن الرجل مصاب بحول في عينيه، ويبدو أن تعلّقه بالنقطة المجهولة في الفراغ ما هو إلا حيلة لمداراة هذا الحَوَل. قال:

ـ لقد اهتديت يا مولاي بعد رحلة قاتلة استمرّت عاماً استعنت فيها بالسحرة والعرافين والعابرين وحتّى بأهل الخفاء بالطبع، لأن لا شيء يفلح في الصحراء دون الاستعانة بأصحاب الوطن الشرعيين كما يسميهم أهل الصحراء!

التقط أنفاساً. أضاف:

ـ طفت يا مولاي الصحراء من أقصاها إلى أقصاها، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، وبلغت تخوم مملكة «برنو» في أقصى الجنوب، و«سلجماست» في أقصى الغرب، ثم بلغت جبل العوينات ودخلت واحة «سيوة» في أقصى الشرق، قبل أن أعود على أعقابي لأجده في مكانٍ كان أقرب لي من حبل الوريد..

تبدّى الفضول في مقلتي الباشا. تمتم:

ـ حقّاً؟

ـ وجدته في غارٍ وضيع بالحمادة الحمراء مررت به في كل رحلاتي دون أن يخطر ببالي أن يتخذه سليل القرمانلي الأكبر بالتبنّي بيتاً.

علّق الباشا غائباً:

ـ هذا مسلك الحقيقة أيضاً: نبحث عنها في أقاصي الدنيا، ثم نكتشف أنها كانت أقرب لنا من حبل الوريد، ولكن بعد أن يكون الأوان قد فات دائماً!

تساءل الرسول:

ـ ماذا؟

ولكن الباشا لوّح بيده في الهواء قبل أن يقول:

ـ هل بلّغته الوصية؟

ـ بلى يا مولاي، ولكنه فاجأني بالقول أن وصيّتك سبقتها وصيّة أخرى!

ـ وصيّة أخرى؟

ـ بلى يا مولاي. إنها وصيّة القرمانلي الأكبر الذي حذّره من العودة إلى الوراء!

ـ العودة إلى الوراء؟!

ـ قال أن الأب قال له مرّة أن الرجل الذي يعود من منتصف الطريق سوف لن يُهزم فحسب، ولكنه سوف يخسر نفسه، لا لأنه سيُقتل لا محالة، ولكن لأنه سيهلك دون أن يعلم. وكلّ من هلك دون أن يعلم فقد هلك مرّتين، لأنه في حقيقة الأمر لم يعش!

ـ هل قال هذا حقّاً؟

ـ قال أكثر من ذلك يا مولاي برغم أني لا أستطيع الآن أن أستعيد كل ما قاله. أمّا عن فحوى الوصيّة فقد قال أن سعادتكم لم

تكونوا له أخاً فحسب، ولكنكم كنتم له خلاً في الروح أيضاً، ولهذا السبب لم يستطع إلاّ أن يحزن أعمق حزن لأنكم أسأتم به الظنّ!

ـ أسأتُ به الظنّ؟

سكت الرسول فتساءل الباشا:

ـ هل يُعقل أن أسيء به الظنّ لأني بعثت في طلبه برسول لكي أضع في يديه أنفس كنوز هذه الدنيا؟

وثب الرسول إلى نقطة المجهول ليقول:

ـ أخشى أنه كان يتكلّم لغة أخرى يا مولاي!

ـ أيّة لغة أخرى؟

ـ لغة يسمّيها أهل الصحراء «التخلّي»!

ـ التخلّي؟!

ـ قال أن قبول الجلوس على العروش ليس طيشاً فحسب ولكنه عمل أكبر بكثير من الجنون!

أطلق الباشا آهة وجع فأضاف الرسول:

ـ قال أيضاً أنه قَبِل أبوّة أحمد الأكبر لأنه السلطان الوحيد في هذه الدنيا الذي لم يكن يوماً سلطاناً!

تمتم الباشا:

ـ في هذه خذله الزلّل..

ـ قال أنه لم يحبّ مخلوقاً في هذه الدنيا كما أحبّ أباك، وهو مدين له مرّتين: مرّة لأنه علّمه أن في الدنيا توجد أشياء أخرى ننال بها السعادة لا يراها الناس، ومرّة أخرى لأنه أجاره من العرش!

تمتم الباشا غائباً:

ـ مسّي! مسّي. .

ثمّ تساءل:

ـ لقد عبّرت له في الوصيّة عن سعادتي فيما لو تفضّل بزيارتي لأنعم برؤيته فيما لو رفض عرضي، فهل بلّغتَ؟

ـ بلّغت يا مولاي، بلّغت. ولكنه طلب مهلة حتى الغد ليفكّر. .

سكت الرسول لحظات خالها الباشا يوماً. ولكنه أبصر نفاذ صبر الباشا فأكمل:

ـ في اليوم التالي اختفى!

هتف الباشا شاحباً:

ـ اختفى؟!

ـ بلى يا مولاي. بحثت عنه في كل مكان، وسخّرت الإنس والجنّ للعثور عليه، ولكنه اختفى لا من الغار فحسب، أو من الحمادة بأسرها، ولكنّي لم أعثر له على أثر في الصحراء كلّها.

ارتجّ الباشا فجأة. غزا الشحوب وجنتيه. سرت في يديه رعشة. أغمض عينيه. وعندما فتحهما أبصر الرسول في أهدابهما دمعاً.

## 29

ـ دن ـ دن ـ دن. . دن ـ دن. .

نقر العمّ سليمان حافة «البندير» بأطراف أصابعه فعلا صوت الطبل. تكلّمت قطعة الجلد المحبوكة حول الخشبة المستديرة بنبرة

أقرب إلى الرنين، ولكنّها نطقت بهدير أعمق عندما قرع براحة يده قلب الرقعة:

- بم - بم - بم. . بم - بم. .

وبرغم حلاوة الصوت إلاّ أن الإيقاع استمرّ عاجزاً، مخنوقاً، كأنه مكبّل بكفّ عفريت. فلماذا اقتصّ منه القدير بحرمانه من القدرة على إتقان الإيقاع وهو الذي لم يعشق في دنياه شيئاً كما تعشّق فنون الإيقاع سواء أكانت نفخاً في مزمار، أم قرعاً على بندير، أم نقراً بالعيدان؟ لماذا بخل عليه المهيمن بشلّ يديه أيضاً عن الصلاة (لأن الإيقاع في ظنّه ما هو إلاّ صلاة) بعد أن شلّ عضلة لسانه عن الابتهال (لأن ترتيل الأوراد أو التغنّي بجمال الكائنات، أو الترنّم بالألحان ما هي في ظنّه سوى صنوف ابتهال)؟ لماذا يختنق بالحنين في قلبه فلا تطاوعه عضلة لسانه كما تطاوع الأخيار من أقرانه؟ هل لأن آثامه أعظم من آثام الأقران؟ هل تبتّل في محرابه العمر كله، وتخلّى عن لذّات الدنيا من حليلة، وزينتها من ولد، وهبتها من أموال، دون أن يفلح في استرضاء العروة الوثقى وهو الغفور الرحيم؟

في مرّة بلغ به الحزن حدّاً لم تسعه به الأرض فسار. سار في الأرض عملاً بوصايا القطب في مداواة الهمّ فإذا بحميمه في الحضرة «سعيد» يتمشّى في الحقل. استوقفه سائلاً عن وجهته. ولكنه بدل أن يجيب على سؤال الحميم سأل الحميم: «إذا بلغ الوجد البرزخ بمن أعجزته عقدة اللسان عن القول فبماذا يستجير غير المسعى؟». فزّت من عينيه دموع العجز فرأى الحميم أن يهوّن عليه بعزاء: «من أعجزه

القول فهناك البدن، ومن أعجزه البدن فهناك القلب. والتعبير بالقلب أعظم الإيمان وليس أقل الإيمان!». يومها خاطب الحميم قائلاً: «لا شيء يعوّض فقدان اللسان يا شيخ سعيد، فلا تحاول أن تهوّن عليّ!».

ولكن الشيخ لم ييأس. أمسك بمنكبيه بكلتا يديه قبل أن يقول: «قل هذا لمن لم يرك تترنّح في حضرة ليلة الجمعة! أنت لا تجدب يا شيخ سليمان ببدنك. أنت تغنّي ببدنك. أنت لا تغنّي ببدنك، ولكنك تصلّي ببدنك!».

أجابه يومها: «لا أستخدم بدني إلاّ لعجزي في استخدام لساني، أنت تعلم. القدير لم يعاقبني على خطاياي بشلّ عضلة لساني فحسب، ولكنه شلّ يديّ أيضاً فأعجزني عن استنطاق حتى البندير!».

ولكنه لم ييأس يوماً. لم ييأس لا باللسان ولا باليد. ظلّ يستخدم اللسان في سويعات الخلوة مغمغماً بلحون مبهمة، كما استمرّ في معاندة طبلة البندير محاولاً أن ينتزع بالقوّة ما لم يهبه له الوهّاب طوعاً. استمرّ برغم الإخفاق. وها هو اليوم يجلس في ظلّ العشيّ خارج كوخه في المنشية ليجرّب حظّه. يقرع قلب الطبل حيناً فيستجيب البندير بالدمدمة الأعمق، وينقر برؤوس الأصابع أطراف الطبل فيستجيب البندير المسكون بالجن برنين كقهقهة السخرية!

لقد قيل له أن السرّ في اليدين فذهب وغمرهما في مراهم الأعشاب لليالٍ كاملة. حرقهما بالأخلاط المطبوخة على نار هادئة

حسب وصفة أحد العطارين الأشقياء. وبدل أن يحقّق المرونة المرجوّة لليدين في الأيام التالية أعجزته يداه عن العمل في بستان الباشا فاعتكف في البيت أياماً. انتظر زمناً آخر فحشرهما في جلد بعير طازج، فكانت النتيجة إصابة بتصلّب الشرايين. وها هو الآن يتوجّع ألماً كلّما ارتطمت أصابعه بخشبة الطبل بدل ارتطامها برقعة الجلد التي تطوّق الخشب. حاول طويلاً، ثم رمى بالطبل جانباً ونهض ليخنق الحنين بالمشي كما اعتاد أن يفعل دائماً. ولكن تصلّب الشرايين أصاب الجسد كله بالشلل في الأيام الأخيرة. تأوّه وهو ينحني ليتشبّث بركبتيه. مسّدهما بكفّيه المتصلبتين ولكن القيد لم ينكسر. انهار على الأرض وهو يتمتم: «حتّى أنت أيها البدن!». ردّد العبارة بصوت مسموع مرّتين. ثم.. ثمّ تذكّر الباشا. تذكّر أحزان الباشا فغمغم مرّة أخرى: «ما أشقاك يا سعادة الباشا. ما أشقاك يا سعادة الباشا لأنّك لا تستطيع أن تصلّي. لا تستطيع أن تغني لأن الغناء هو الصلاة. لا تستطيع حتّى أن تتمشّى لتحتال على الألم!». فزّت من عينيه الدموع. كانت تلك دموع العجز لا دموع الوجع. العجز في أن يهوّن الوجع على صديقه الباشا أكثر مما كان عجزاً في مداواة أوجاعه. ولكن وخياً ألهمه في اللحظة التي انهمرت فيها الدموع لتسيل على وجنتيه: العُقار! بلى، بلى. الخلاص في العُقار! لا شيء يغلب ما ظلّ في الدنيا عُقار!

كان يبتسم بغموض وهو يزحف على يديه وركبتيه نحو الكوخ المغمور بغيهب الغروب.

## 30

تطلّع الأرناؤوطي من سفينته الراسية في المرفأ إلى القلعة المنتصبة فوق هامة السراي فتمتم بلا وعي:

ـ هذه مغارة الضّبع: من امتلكها فقد امتلك البرّ الذي تهبّ رياحه تبراً، والبحر الذي تقذف أمواجه لؤلؤاً!

ثم نزل اليابسة مصحوباً بلفيف من الأعوان فيما كانت مدفعية القلعة تطلق القذائف تحيّةً لراية الإمبراطورية العثمانية التي ترفرف فوق قلوع السفينة الراسية في الميناء.

فوق اليابسة هرع لاستقباله بعض المخبرين المتنكرين في أثواب الموظفين ليمطروه بالأسئلة اللئيمة عن وجهة السفينة، وهويّة ربّان السفينة، وعدد الأيام التي ينتوي قضاءها في ربوع المملكة، وتفاصيل أخرى عن حاجاته من المؤونة. ابتسم باستخفاف وهو يستعيد حيل الأستانة في دسّ المخبرين للإيقاع ببلهاء السفن وقال لنفسه أن الطرابلسيين ما زالوا، في هذا المجال، أطفالاً يحبون على أربع إذا قورنوا بدهاة الأستانة الذين يتخفّون في أجرام الشحاذين، وسائقي العربات، وبائعي الفطائر، والغجريات اللائي يقرأن الحظوظ في الأكفّ، وعمّال النظافة، والعتّالين الذين ينؤون بالأحمال، وغلمان الأزقّة، وبائعات اللذّات في الطرقات أو في بيوت الدعارة، وكل مخلوق يمكن أن يعترض طريق القادم الجديد منذ اللحظة التي يطأ فيها بقدمه أرض الأستانة إلى اللحظة التي يغادر فيها اليابسة.

كان يقلّب في إصبعه الخاتم الذهبي المتوّج بالفصّ الأخضر المهيب دون أن تفارق البسمة الماكرة شفتيه، منتظراً إشارة من أحد

المندسّين في جمهرة مستقبليه، ودون أن يغفل أيضاً عن تفقّد أسوار المدينة، وحصون السراي، وحال المدافع المشيّعة فوق القلعة، ووضع البوابات التي مرّ بها في طريقه.

قبل أن يدرك باب هوّارة أطلّ من قلب الزحام رأس متوّج بطربوش أحمر تقدّم من الضيف وبصق في وجهه. صُعق القرصان في حين صاح صاحب الطربوش:

ـ لا تظنّ أن هذه بصقة بركة، بل هي بصقة خزي، لأنكم لو كنتم حماة ديار المسلمين حقّاً لقصفتم أسوار هذه المملكة بالقنابل بدل أن تقبلوا عليها بفرمانات تنصيب الولاة أو خلع ألقاب الباشوات!

سارع أحد المخبرين المتنكرين في لباس المستقبلين فهمس في أذن الأرناؤوطي:

ـ إنه الدرويش يا فخامة الأميرال!

كانت العبارة إشارة كافية للضيف كي يمسح البصقة عن وجهه ويواصل طريقه، ولكن الدرويش استوقفه مرّة أخرى:

ـ أعرني مدافع سفينتك يوماً واحداً وسوف ترى ما سأفعله بهذه المدينة التي باعت ضميرها لشياطين النصارى ولم يبقَ منها سوى البنيان الذي تراه الآن!

حدّث القرصان نفسه: «عليك اللعنة يا محمود راغب وعلى السلطان أيضاً لأن هذا الأبله قال لي أنك درويش ولكنه لم يقل لي أنّك مجنون!» ثم بصوت مسموع:

ـ سوف أعيرك مدافع السفينة حالما أنتهي من جولتي في السوق بشرط أن تذهب لتباركها بلعابك، وتحرسها من عين الحسود إلى حين أعود!

ولكن يبدو أن محمود راغب المتنكّر في جبّة الدرويش فقد صوابه تماماً لأنه بدل أن يفهم الإيماء في العبارة قفز ليتشبّث بساعد القرصان مردّداً:

ـ لا تحاول أن تستخفّ بي! فأنا لن أتركك حتّى تدفع ما استوجب عليك دفعه من المكوس!

لحظتها ابتسم الأرناؤوطي كمن تذكّر شيئاً. أدخل يده في جيبه وأخرج صرّة جلدية صغيرة. وضعها في كفّ الدرويش وهو يقول:

ـ استعن بهذه على يومك، وما تبقّى تستطيع أن تشتري به مدفعاً!

تضاحك الجمع في حين تخلّف الدرويش عن الركب. تنحّى في زاوية وفتح الصرّة. إلى جانب القطع الفضية وجد في الصرّة ورقة صغيرة مطوية بعناية. فتح ثناياها ليجد عبارة لم تخلُ من غموض: «عليك بشيخ البلد!».

وضع النقود في كفّ أوّل شحّاذ، في حين ألقى بالورقة في فمه وبدأ يلوكها قبل أن يبتلعها. سلك الدرب المؤدي لسوق الترك وهو يتساءل عن معنى هذه الأحجية. هل قرّر الأوباش أن يسندوا له مهمّة التخلّص من شيخ البلد لعلمهم بالخصومة بينهما؟ أم أنهم يريدونه أن يراقب سعيه ليس إلاّ؟ أيكون سليل السفلة هذا أحد أضلاع الثورة وعليه أن يلتجىء إليه ليجد عنده الخبر اليقين؟

ذهب إلى بيت المفتي بحثاً عن تفسير، ولكن الخدم أخبروه

بغياب المفتي عن الدار. عاد أدراجه. تسكّع في الأزقة حتى حلول المغيب. تسلّل إلى جامع درغوت لأداء صلاة المغرب. حام حول مقهى «الأعمدة» ولكنه تجنّب الخروج إلى الزبائن. استشعر الجوع فذهب إلى ساحة الرخام واشترى فطيرة. طاف الشوارع الخلفية وهو يلتهم الفطيرة المغمورة بالدّهن. عَبَرَ إلى باب البحر فوجد العسس قد أغلقوا البوابة للتوّ. عاد على عقبيه. تحسّس الخنجر المدسوس في غمدٍ مشدودٍ إلى خاصرته. تساءل بذهول عمّا إذا كانت الحياة الدنيا جديرة بأن يسفح فيها الإنسان دمعة من مقلة أخيه الإنسان فكيف بسفك دم أخيه الإنسان؟ اقتعد القرفصاء في زاوية بجوار ضريح أحد الأولياء. ارتفع صوت المؤذّن إيذاناً بحلول صلاة العشاء. لم يذهب لتأدية صلاة العشاء. لعن في سرّه صاحب الأستانة وأكابر الأستانة الذين زجّوا به في مغامرة سيجنوا هم فيها الغنائم في حين سيخسر فيها هو نفسه. سيخسر نفسه في كلا الحالين. سيخسر فيها سواء أمات أحداً، أم قُتِل بيد أحد. سيخسر حتى لو انتصر. فكّر في الفرار. ولكن إلى أين؟ نهض. تسكّع. ذهب عبر الزقاق المؤدّي إلى قلب المدينة. تطلّع إلى أعلى. في السماء صفاء. في قلب الصفاء بدر. في عينه دمعة.

وجد نفسه أمام المقهى. مقهى «الأعمدة» مأهول بالأكابر. في قلب الأكابر انتصب طربوش شيخ البلد. أصابه الغثيان لمرأى استكبار هذا النذل حتى كاد أن يتقيّأ الفطيرة التي أكلها منذ قليل. استثاره استكباره. استثاره قبحه. استثارته شفتاه المفلطحتان، حاجباه الكثّان، لحيته المشذّبة. استثارته العبارة التي سمعها من هاتين

الشفتين الوقحتين منذ أمد فزعزعته لأنه لم يسمع بمثيلها في حياته حتى كان سيفعل شيئاً بنفسه لو لم يهوّن على نفسه بفعلته التي أثارت استنكار الأكابر فوبّخه عليها المفتي توبيخاً شنيعاً. وها هو الوغد الآن ينتصب بين الأعيان، يحتسي القهوة، يطلق الضحكات، يتبادل مع الخلاّن النكات. ها هو يحيا. ها هو يُفسد. يتزوّج، يطلّق، يرتشي. يكيد بلا وازع. بلا قصاص. دون أن يدفع الثمن. وعليه هو الآن أن يجعله يدفع الثمن!

مدّ يده. انتزع من الغمد الخنجر. تقدّم من إمام الاستكبار المتخفّي في ثياب شيخ البلد. غرس الخنجر في نحره وهو يحشرج ببحيح كأنه فحيح:

- أخرج من أقنعتك يا عدوّ الله!

## 31

زأر المفتي وهو يذرع البيت كسبع سجين قفص:

- لقد أفسد الدعيّ كل شيء!

حاول الأرناؤوطي أن يهوّن عليه:

- لا يجب أن نستبق الأحداث، فربّما أفلح صالح بك في إنقاذ ما يمكن إنقاذه!

ولكن المفتي لم يقتنع:

- كيف يستطيع صالح بك أن ينقذ ما يمكن إنقاذه إذا كان الأبله قد مزّق الستور بحماقته، وها هو الهرج يعلو، والبلبلة تعمّ،

والرصاص يحصد الرجال في وقتٍ لم نلتقط فيه حتّى أنفاسنا، فكيف بلمّ صفوفنا؟

- لقد أدركتُ منذ أوّل وهلة أنه مجنون وليس بدرويش!

توقّف المفتي عن الدبيب جيئةً وذهاباً. زأر في وجه القرصان العثماني:

- ولكن ما الذي سطّرته في الرسالة؟

- عبارة صغيرة تقول: «عليك بشيخ البلد!».

هتف المفتي بأعلى صوت:

- «عليك بشيخ البلد»؟

هوى بيده على جبينه حتى ارتجّت عمامته. صاح:

- ألا تدري أن بينه وبين شيخ البلد عداوة؟

- كيف تكون بينه وبين شيخ البلد عداوة إذا كان كلاهما ركن في مركب واحد؟

زفر المفتي أنفاساً كأنها صهد القِبْلي. صاح:

- وماذا نفعل بالغبي الذي صدّق أنه درويش؟

- هل صدّق حقّاً؟

- لم يصدّق فحسب، ولكنه تقمّص الدور إلى حدّ نسى فيه اسمه!

- ما كان عليك أن تترك له الزمام حتى يفقد الصواب. جلالة السلطان عوّل عليك، لا عليه!

لوّح المفتي بيده في الهواء قائلاً:

ـ يعلم الله أني فعلت كل ما بوسعي، ولكنه برهن بما لا يدع مجالاً للشك بأنه تركي. أنت تعرف ماذا يعني أن يحمل الإنسان على منكبيه رأساً تركياً!

هبّ القرصان كأنه لدغته أفعى:

ـ احترس أن تسبّ الأتراك حتّى في سرّك فتسمعك الجدران التي تنقل الخبر إلى صاحبنا!

قال المفتي بلهجة يائس:

ـ تستطيع الجدران الآن أن تنقل إلى الباب العالي ما تشاء، لأن كل شيء مضى وانقضى!

حاول القرصان أن يشدّ من أزره:

ـ لا يجب أن نستسلم لليأس أبداً. هذه وصيّة لقّنها لي حميمي البحر!

تطلع إليه المفتي بعجب. قال باستخفاف:

ـ يبدو أنّك لا تقدّر حقّ التقدير خطورة ما حدث!

ابتسم القرصان باستخفاف أيضاً. قال:

ـ لا تقل أبداً أن الأمر انتهى ما لم ينتهِ الأمر فعلاً. هذه وصيّة أخرى لقّنتها لي «عزيزة» أشهر عرّافة في بلاد الأناضول!

ـ ولكن عرّافينا يلقّنوننا نبوآت أخرى.

ـ وماذا يقول عرّافوكم؟

توقّف المفتي عن الحركة، ولكن هياجه لم يتوقّف. قال:

ـ ما تفتتحه الجريمة تختتمه جريمة!

ـ مهلاً، مهلاً: أليست الجريمة ضرب من دمّ؟

ـ يقيناً!

ـ أليس الدم قرباناً في كل الأحوال؟

ـ أستطيع أن أوافق بشرط أن يكون دم أنعام لا دماء أنام!

ابتسم الأرناؤوطي. قال:

ـ أظنّ أن الأرواح الشرهة إلى الدّم لا تفرّق بين دماء الأنعام ودماء الأنام. بل الأرواح الأقوى تفضّل قرابين الأنام على قرابين الأنعام. أنت لا تصدّق إذا قلت لك أن ما من مرّة استهدفني فيها الخفاء بالأعاصير في عرض البحر لينالني ونحرتُ له أحد رجالي إلاّ وهدأ لتكتب لي النجاة!

تطلّع إليه المفتي بارتياب. سأل:

ـ هل نحرتَ رجالك حقّاً؟

ـ بيدي هذه، وبخنجري هذا!

ـ ألا ترى في هذا بدعة من بدع عبدة الأوثان؟

ـ ومن نحن إن لم نكن عبدة أوثان؟

حدّق فيه المفتي بعينين جاحظتين. تمتم:

ـ هل تستهزيء بي؟

ـ أنت أيضاً من عبدة الأوثان!

كان المفتي يرتجف عندما أضاف القرصان:

ـ أنتم لا تجدون حرجاً في أن تسفحوا الدم للفوز بالكنوز وتنسون أن الفوز بالسلطان أيضاً كنز. بل هو كنز الكنوز ورأس كل

فوز. ولا أظنّك عن هذه الحقيقة غافلاً يوم وافقت على المشاركة في تدبير المكيدة، ثم تستنكر أن يطير رأس شيخ البلد قرباناً للفوز بالغنيمة!

تساءل المفتي شاحباً:

ـ لا أظنك دفعت محمود راغب لفعل ما فعل عامداً!

قال القرصان ببرود:

ـ لا فلاح بلا قربان، ولا أعتقد أن رأس شيخ البلد أنفس من رؤوس جنودي التي تتساقط في الشوارع الآن، ولا أنبل أيضاً من رأس الأضحيتين اللتين نحرتهما على متن الباخرة قبل نزولي اليابسة!

ساد صمت. في الخارج استمرّ إطلاق النار. ولكن الضجيج هدأ ولم تعد تسمع سوى أصوات بعيدة.

تساءل المفتي وهو يزداد شحوباً:

ـ هل نحرتَ أناماً حقّاً وأنت في طريقك إلى هنا؟

أجاب القرصان ببرود:

ـ بالطبع نحرت أناماً!

ثم أضاف بعد وهلة:

ـ نحرتهم بيدي هذه وبخنجري هذا. أنت لا تدري أن مَنْ ينحر الناس ليس من يجرّ الخناجر على نحورهم، ولكن قاتلهم هو مريد السلطان!

سكت. حدج المفتي خفيةً. أضاف:

ـ أنت أيضاً نحرت الأنام، لأنك أردتَ السلطان!

كان المفتي شاحباً إلى حدّ أن القرصان توقّع أن يسقط ميّتاً بين يديه. في تلك اللحظة اقتحم الخدم المكان معلنين وصول رسول صالح بك. ولكن الرسول لم ينتظر الإذن بالدخول، اقتحم المكان وراءهم ليسلّم المفتي قرطاساً ملفوفاً في رقعة جلد. افتضّ المفتي الرقّ بيدين راجفتين. انتزع القرطاس من جوف الرقعة وشرع يلتهم الأسطر بعينيه. انتهى من القراءة. انهار على المقعد. أغمض عينيه. تمتم:

- يجب أن نتوقّع الأسوأ!

هتف القرصان:

- ماذا يعني هذا؟

سكت المفتي طويلاً قبل أن يجيب:

- هذا يعني أنّك يجب أن تتوارى!

- أتوارى؟

حدّق فيه المفتي طويلاً قبل أن يقول:

- سترتدي زيّ امرأة، وسوف تتخبّأ في بيت أحد الأروام حتّى يقضي الله أمراً كان مفعولاً!

## 32

أقبل الروّاد على مقهى «الأعمدة» بعد أن أغلق أبوابه لثلاثة أيام متتالية. في أحد الأركان المشرفة على الساحة انتصب القرينان. طلبا القهوة التقليدية كعادتهما قبل أن يفتتح أسمرهما جلسة السّمر:

- إلى متى تبقى سيوف الخراب مسلّطة على هذه المدينة الشقية

التي إن لم تُصفع على قفاها بيد عصاة الدواخل الذين يأتونها من البرّ صُفعت على قفاها بيد القراصنة الذين يقبلون عليها من البحر. فإن لم يصفعها على القفا قراصنة البحر صفعها أعلاج القلعة بمكائدهم التي لا تنتهي. فإن لم يصفعها هؤلاء على قفاها صفعها سادتها. فإن لم يصفعها سادتها صفعت نفسها بيد أهلها؟

أجابه صاحب سيماء الضياء:

ـ أخشى أن هذا هو حال كل المدن.

استنكر حميمه:

ـ كل المدن؟

ـ السرّ في الزمان وليس في المدن.

ـ ماذا تعني؟

ـ الأمان كالبطولة من أراده فليطلبه في الموت!

لم يفت صاحب سيماء الكآبة أن يعبّر عن استيائه:

ـ لا تفوّت فرصة إلاّ وتجنح بعيداً.

ابتسم صاحب سيماء الضياء، ولكن القرين ما لبث أن مضى:

ـ اعترف أن ما فعله الأشقياء بالدرويش عمل بشع.

ـ أما زلت تسمّيه درويشاً حتّى بعد أن انكشفت للناس سوأته؟

ـ ليس المهم هو الاسم. المهم ما ألحقوه به من عار!

ـ وهل نسيت العار الذي ألحقه مسيلمة الكذّاب ذاك بأهالي المدينة يوم كان يقفز على نسائهم في الطرقات كأنه التيس؟

سكت صاحب الكآبة لحظة. ترنّم بلحن مرزكاوي من ألحان الحنين زمناً، ثم قطعه ليقول:

ـ ثلاثة أيام كأنها ثلاثمائة عام!

ـ هذا من فضائل الشدّة!

ـ ماذا تعني؟

ـ لا نستمتع بالحلاوة إلاّ إذا تجرّعنا المرارة!

ـ مصرع شيخ البلد كابوس لا يُنسى.

ـ أووه..

ـ كلّما تذكرته استولت القشعريرة على بدني.

ـ أعجب ما في الأمر أنه لم يطلق صوتاً على الإطلاق.

ـ يقال أن هذا قدر كل من قُتِل غيلةً.

سكت صاحب الكآبة لحظة ثم أضاف وهو يرنو إلى النجوم:

ـ الأفظع من هذا مقلتاه. هل رأيت الفراغ في مقلتيه؟

ـ الفراغ؟

ـ خواء كأنه هاوية بلا قاع. لا أعرف ماذا يمكن أن أسمّي ذلك.

ـ آه. إنه خواء الأبدية. فلنقل أنه سيماء الأبدية.

ـ ما معنى سيماء الأبدية؟ هل تظنّ أن للأبدية سيماء؟

ـ كل شيء يمتلك سيماء، والأبدية تأتي في أوّل مقام.

ـ لا تسرح بنا بعيداً.

ابتسم صاحب الضياء في حين أضاف صاحب الكآبة:

ـ ولكن الأفظع من كل شيء هو تنكليهم بدرويش الزور. أنت تدري ما معنى أن تُجتثّ من الإنسان الأعضاء.

ـ هل اجتثّوا أعضاءه؟

ـ اجتثّوا عضوه!

ـ أووه. . . وماذا فعلوا به؟

ـ صلبوه على باب هوّارة!

ـ لا أقصد الدرويش. ولكن أعني العضو!

ـ وضعوه سدّادةً في فمه!

ـ سدّادة في فمه؟

ـ كان يحشرج طوال الوقت بسبب الإحليل، ويقال أن ميتته كانت بسبب الاختناق!

ـ يجب أن نعترف بأن هذا فتح جديد في فنون التعذيب لم يخطر على بال إنس ولا على بال جان!

تهدّج صوت صاحب الكآبة وهو يقول:

ـ هذا ليس كل شيء.

ـ ماذا بعد؟

ـ هل رأيت كيف ينتفض ذنب السحلاة عندما يُستقطع من بدن السحلاة؟

ـ بلى، بلى.

ـ عضو ذلك الشقي كان ينتفض أيضاً كما ينتفض ذنب السحلاة حتى بعد أن قضى صاحب العضو نحبه!

ـ هل تريد أن تقول أنه كان ينتعظ حتّى بعد هلاك صاحبه؟

ـ لو لم أره بعينيّ هاتين لكذّبت!

ـ هذا يعني أن الشقيّ لم يكن يوماً سوى عضواً.

ـ ماذا تعني؟

ـ ألا يسميه القدماء «الحيا» استعارةً من الحياة؟

ـ صدقت.

ـ ألا يسمّي الناس ماءه «ماء الحياة»؟

ـ صدقت.

ـ وماذا فعل الهمج بإحليل المنكوب؟

ـ لا أدري. ما أدريه أنه ظلّ ينتعظ ويتقافز في الساحة حتّى هجمت الظلمة وغادرت المكان.

ـ أعوذ بالله..

رشفا من قهوتيهما. تبادلا التحيات مع روّاد المقهى الذين بدأوا يتقاطرون أوّلاً بأوّل. دغدغت القهوة الممزوجة بسرّ الدنيا حواس صاحب الكآبة فعاد يروّض حنينه القديم في لحون المرزكاوي.

ثم قطع اللحن فجأة ليقول:

ـ ولكن هل تظنّ أن بال السراي سيهنأ قبل أن يقبضوا على المغامر؟

ـ الأهم من القبض على المقامر هو استجلاء حقيقة الذين تحوم حولهم الشبهات.

ـ هل تعني رئيس البحرية؟

ـ رئيس البحرية وغير رئيس البحرية.

ـ يُروى في المدينة أن القرصان نحر اثنين من رجاله على ظهر السفينة قرباناً لإنجاح مسعاه، ولم يكن شيخ البلد سوى ثالث الأثافي في القربان الرهيب.

ـ في قمقم الزمان لا عجب!

ـ يُقال أيضاً أنه أفلت بسبب الحصن الحصين.

ـ أيّ حصن حصين؟

ـ حصن أو نبوءة أو يقين جلبه معه من دياره.

ـ إذا تحصّن باليقين فلا شكّ في أنه أفلت، لأن اليقين أقوى من كل الحصون.

ـ البعض يقول أن رؤوساً كثيرة قد أينعت!

ابتسم صاحب سيماء الضياء قبل أن يقول:

ـ هذا يعني أن أوان مارد الأدغال قد حان!

غمز مريد اللحون بعينه. قال بمقلة تفضح مكراً:

ـ ألن يعني هذا أن أوان إفشاء سرّه قد حان أيضاً؟

ولكن الحميم انتهره بعبارة:

ـ تذكّر أنّنا أضياف، وليس على الضيف أن يتدخّل في شئون المضيف!

صاحب الكآبة لم يقتنع. قال:

ـ هل ندع المسخ يزهق أرواح الأبرياء دون أن نحرّك ساكناً؟

احتجّ صاحب الضياء:

ـ هل أنت على يقين أنهم أبرياء؟

ـ كل روح بريئة ما لم يثبت جرمها.

ـ هذا ما يرد في متون الناموس، أمّا في ساحة الدنيا فتسود شريعة أخرى.

ـ رسالتنا أن نجاهر.

ـ بل رسالتنا أن نتفرّج.

ـ ما أخشاه أن ينقلب السحر على الساحر فيما لو تركنا الأمور تجري على أعنّتها.

ـ ها أنت تخطىء؛ لأن المسيرة برهنت أن أخطر ما في الأمر: تغيير مجرى الأمر!

سكت صاحب الكآبة ومضة قبل أن تنتابه نوبة وجد:

ـ آه لو أدركوا السرّ. .

قاطعه صاحب الضياء:

ـ لا تفسد علينا دنيانا وتذكّر أن للجدران آذان تسمع!

## 33

ترك البهيمة في ساحة الرخام وتسلّل عبر الأزقّة الجانبية حتّى بلغ المدرسة القرآنية. تسلّق الجدار الملاصق لبنيان المدرسة ليجد نفسه مطلاً على فناء يستظلّ بشجرتي نخيل. قفز إلى أسفل. تفقّد باب البيت فوجده مغلقاً بإحكام. سار بمحاذاة الجدار شرقاً. وقف تحت شبّاك ملفّق من الخشب. تسمّع. سكون كالموت. تقدّم خطوة. تشبّث بضلفة الشبّاك بيدين في حجم مجرفتين حديديتين. شدّ النتوء

بأصابعه حتّى انفرجت الضلفة عن شرخ. أدخل يده في الفوهة وشدّ بحذر. شدّ حتّى تهشّم الخشب وانتزع الضلفة. حاول أن يلج إلى الدّاخل. أخفق. انتزع الضلفة الأخرى. تسمّع. لا صوت. حاول أن يتبيّن جوف البيت. الظلمة في الداخل أشدّ حلكة من ظلمة الخارج. انتظر. لا صوت. الظلمة والخواء وسكون الموت. لا مفرّ من القفز إلى الجوف. إلى الظلمة. إلى المجهول. قبل أن يرمي بنفسه إلى جوف المجهول غزت أنفه رائحة زكيّة. امرأة؟ عطر؟ بخور؟ لم يعد في الأيام الأخيرة يميّز بين الروائح. مرض غريب أن يفقد حاسّة الشمّ. ولكن أن يفقد حاسّة الشمّ أهون من أن يفقد حاسّة اللّمس. أو حاسّة النظر. فقدان حاسّة البصر فقدان لكلّ شيء. فقدان للحياة، برغم أن العميان يقولون أن الإنسان يستطيع أن يستعيض عن فقدان حاسّة البصر بحاسة الحدس. يستطيع عندما لا يجد المفرّ أن يربّي في نفسه أحجية يطلق عليها الفقهاء اسم الحدس. الفقهاء يقولون أيضاً أن الإنسان يستطيع أن يعتاد كل شيء. حتّى الظلمة. الموت فقط هو ما لا يستطيع أن يعتاده الإنسان. بل لا يجبر الإنسان نفسه على اعتياد المحال إلاّ ليستجير من الموت. والغريب أنه لم يخف يوماً من هذا البعبع. لم يخف من الموت. ربّما لأنه لم يجرّب الموت. لم يجرّب حتّى المرض الذي يقول الفقهاء أنه رسالة للتذكير بالموت. لم يخف السيوف التي تحمل في أنصالها الموت. ولا السكاكين لأن جسده مصبوب من حديد. لأنه سليل الحديد. لأن كهنة الأدغال عرفوا كيف يجيروه من شرّ المعدن برغم أنهم أخفقوا في أن يجيروه من شرّ اللفافة المفتولة من الجلود. من السوط! السحرة يحصّنون من شرورٍ كثيرة، ولكنّهم

لا بدّ أن يدسّوا في بدن المخلوق سرّاً يميت إكباراً للعهد مع القدَر، وبرهاناً على استحالة الفرار من الموت. قد يروق لهم أن يخفوا سرّه في عَقَبه، أو شعر رأسه إمعاناً في التضليل، أو في أسنانه، أو حتّى في إحليله. بالأمس القريب شاهد دليلاً على هذا. اجتثّ الغوغاء إحليل الدرويش فهلك المسكين. هلك قبل أن يصلبوه. البلهاء لا يدرون أن الدرويش هلك قبل أن يصلب. هلك عندما انتزعوا العضلة من بين فخذتيه. ولكن..

ولكن الرائحة في أنفه تمادت برغم ضعف حاسّة الشمّ. مزيج من العطور والبخور وجسد الأنثى. فهل اقتحم رحاب الحريم بدل رحاب المفتي؟

ليس في نيّته هذه المرّة أن يلتحم بجسد امرأة بعد المغامرة الدموية الأخيرة التي أثارت غضب السادة وكان يمكن أن يفقد بسببها رأسه فيما لو اكتشف أمره، فيما لو عرفوا سرّه، فيما لو أدركوا أنه لا يموت لأنه من أهل الجان، ولكن لأنه محصّن من معدن الحديد.

قرّر أن يتخلّى عن النساء برغم يقينه بأنه سوف يجرم في حقّ هذه الملّة. ذلك أنه لم يطأهن في الماضي إشباعاً لشهوة، أو إرواء لانتقام (لأنه لم يرَ الانتقام يوماً إلاّ انتقاماً من الرجال)، ولكنه عاشرهن حسرةً عليهنّ. لأن المرأة ما هي إلاّ أنثى. والأنثى تفقد أنوثتها إذا ذهب عنها رجلها. الأنثى إذا ذهب بعلها مخلوق مهجور وغريب وجدير بالشفقة لأنها إمّا أن تتحوّل بغياً، إمّا أن تصير ناسكةً. وكلاهما أمر منكر في عرف الأرض وفي ناموس السماء. وما فعله ما هو إلا عمل لإنقاذها، العمل الوحيد الذي يجيرها من

البغاء، ومن هول النسك. لأنه لم يسمع يوماً بامرأة مارست البغاء أو حبست نفسها في صومعة ثم تباهت بنيْل السعادة!

في ركن الدار سمع حركة مفاجئة. وقبل أن يتخذ تدبيراً ندّت عن المخلوق صرخة. صرخة زلزلت البيت كلّه. صرخة امرأة. هجم على الركن الذي انطلقت منه الصرخة في نيّة لإسكات ذلك الصوت المسعور إلى الأبد، ولكنه ارتطم بجسم كأنه حافة سرير أو مقعد. هوى إلى الأمام فوجد بين يديه بدناً رخواً، لزجاً، بليلاً كأنه قطعة لحم. ارتفع نداء الطفل موجعاً كأنه عواء ذئب. اختلط صوت المرأة مع صوت الوليد فتمازجا في زعيق أفقده صوابه. عمّت البلبلة فهرع الخدم وربّ الخدم. اقتحموا المكان بالأضواء فأحسّ أنه ضُبط عارياً. وبرغم ذلك لم يفكّر لحظة في الفرار من النافذة. صرع أحد الخدم بضربة ولكن الخادم الثاني هوى على منكبيه بهراوة غليظة. لم يستشعر وقع الهراوة أيضاً.

اندفع نحو الخصم فأطاح به بصفعة. همّ بأن يلتفت ليتولّى ربّ البيت، ولكن زلزالاً رهيباً أصابه في تلك اللحظة. فقد تلقّى على منكبيه مسّاً سقط بسببه أرضاً وبدأ يتلوّى.

أطلق صرخة زعزعت البيت كلّه وابتلعت صرخات أهل البيت. فتح عينيه في ومضة فرأى الثعبان المسلّط على بدنه. رأى اللفافة. رأى القَدَر. رأى السوط في يد ربّ البيت، فعوى عواء الذئاب. بل زأر زئير السباع وتوسّل الرحمة. ساعتها تذكّر أنه لم يذهب إلى بيت أحد الفرسان أو الأكابر أو الأعيان الذين لا يمتلكون في بيوتهم سوى السيوف، ولا يدافعون عن أنفسهم إلاّ بالحديد أو نيران البنادق

أو الغدّارات، ولكنه اقتحم بيت المفتي الذي لا وجود في بيته إلاّ للمصحف؛ وإذا امتلك سلاحاً، فلن يكون هذا السلاح سوى السوط الذي يستخدمه لتأديب خدمه أو عبيد حقله!

## 34

قال الباشا للعمّ سليمان:

ـ ألم يحن الأوان بعد كي نختطّ لك في الحقل داراً؟

أجاب العمّ سليمان دون أن يرفع عن الحضيض رأسه:

ـ أنت تعرف يا مولاي أين داري!

ـ مآلنا كلّنا إلى الدّار التي تعنيها يا عمّ سليمان. ولكن للشيخوخة أحكام!

ـ افترشت الأرض وتلحّفت السماء عمري كلّه، ولا أريد أن أخون سجيّتي بعد أن بلغت من العمر أرذله.

ـ وها أنت تعاني تصلب الشرايين وتعاند النقرس نتيجة ذلك.

ـ أن أعاني تصلّب الشرايين وأعاند النقرس أهون من أن أعاني هموم النفس أو أعاند أوجاع القلب يا مولاي!

ابتسم الباشا. تساءل بعد لحظة:

ـ هل تظنّ أن المبيت تحت السقوف سرّ الهموم وعلّة أوجاع القلوب؟

انتصب صاحب الحضرة. كانت يداه ملوثتان بالأوحال، جبينه ينزّ عرقاً، ولكن في عينيه يلتمع إيماء لم يستطع الباشا يوماً أن يدرك له اسماً. حاول أن يتمرّد على الداء وينتصب مستقيماً، ولكن الظهر

خذله فوقف منحنيّاً إلى الأمام كأن الأرض هي التي تشدّه إلى الأسافل. قال:

- السقوف يا مولاي حجاب لا يرتضيه إلاّ صاحب دنيا، ولا راحة للمريد غير خلوة الخلاء الخالي.

تخابث الباشا:

- هل تراني صاحب الدنيا لأني لم أبت ليلة تحت سماء النجوم؟

- أنت لا تبيت تحت سقوف ولا تحيا بين جدران يا مولاي.

- أين تراني أحيا يا عمّ سليمان؟

حدجه البستاني بنظرة خاطفة. أشاح ببصره نحو السماء قبل أن يجيب:

- لا أدري. ربّما في قلبك. نحن نقول وطن المؤمن قلبه!

- ولكن ألم تُسخّر لنا الحجارة لتقينا القرّ شتاء والحرّ صيفاً؟

تردّد العمّ سليمان. قال مطأطئاً:

- لا أدري يا مولاي. أظنّ أن الحجارة لم تُخلق إلاّ لنبتني بها أضرحةً!

استنكر الباشا:

- أضرحةً؟!

- أضرحة أو قبوراً. هل يدري مولاي ماذا يسمّي أهل الصحراء مدن الحجارة؟

تساءل الباشا دون أن تفارق البسمة شفتيه:

- ماذا؟

ـ الجبّانة يا مولاي!

ـ الجبّانة؟

ـ وقبائل أخرى تسمّي الجبّانات مدناً!

أطلق الباشا صوتاً غريباً كأنه استحسان في حين أكمل البستاني:

ـ البيت قبر الدنيا يا مولاي، كما أن القبر بيت الأبدية؛ فأيّ الأمرين أفضل: أن نموت في قبر الدنيا ونحن أحياء، أم نحيا في بيت الأبدية ونحن أموات؟

تنفّس الشمال بأنسام البحر فاستجابت أشجار النخيل بهسيس كالهمس. تطلّع الباشا إلى شعاف الشجر في حين عصف بالبستاني شجن كوجد الحضرة، لأنه كثيراً ما يذرف الدمع حنيناً كلّما غنّى الريح في سعف النخل. ولا يعرف لماذا لا تغنى الرياح في أعراف الأشجار الأخرى كما تغنّي في قمم النخل. أم تُرى نداء الدّم هو الذي يستيقظ فيه لأن الروح التي تهفو إلى مسقط الرأس لا تكفّ عن النواح كلّما عصفت بها الذكرى، وما الريح سوى رسول يتكلّم بوصيّة الوطن في رؤوس النخلات.

ويبدو أن الباشا أدرك سرّه عندما سأل:

ـ حدثتني يا عمّ سليمان كثيراً عن دنياك كأنّك سليل أغراب، ولكنّك لم تحدّثني يوماً عن مسقط رأسك.

أجاب العمّ سليمان وفي عينيه ما تزال تلتمع بقية من كآبة تتخلّف دائماً عن الوجد الغابر:

ـ حدّثتك عن دنياي، يا مولاي، بلسان الأغراب لأني بالفعل في هذه الدنيا سليل أغراب!

ـ ومن منّا ليس سليل أغراب في هذه الدنيا يا عمّ سليمان؟

ـ لا أدري يا مولاي، ولكن يخيّل لي أحياناً أن أهل المدينة من طينة أخرى.

ـ لا يجب أن ننكر أنهم أشقياء أيضاً مثلهم في ذلك مثل الناس في كل مكان.

ـ أجل يا مولاي: هم أشقياء شقاء صاحب الدنيا لا شقاء الغريب عن الدنيا.

ـ هل تظنّ أن أهل الصحراء وحدهم السلالة الغريبة عن الدنيا؟

تطلّع البستاني إلى الباشا بعينين مبلّلتين. قال بحزن:

ـ بلى يا مولاي: أهل الصحراء سلالة غريبة عن الدنيا.

ـ لماذا يغترب أهل الصحراء يا عم سليمان؟

ـ لا أدري يا مولاي: ربّما لسرّ في الرحيل.

في عينيه تبدّى إيماء ضياع قبل أن يضيف:

ـ في عيون المهاجرين فقط نستطيع أن نشاهد التخلّي الذي لا نراه عادةً إلاّ في عيون الأموات!

تابعه الباشا بفضول حتّى عندما سكت وانحنى على عشب الأرض ليخفي حنينه. قال:

ـ أقبلتُ، يا مولاي، من الجنوب حاملاً في جرابي أحلامي مثلي مثل الكثيرين في هذه المدينة. ولكني اكتشفت أن المدينة لا تحقّق

أحلامنا دون أن تنال بالمقابل أرواحنا. المدينة دائماً صفقة تجارية يا مولاي!

ـ صدقت. الصفقة ناموس المدينة.

ـ قبل أن أنزل المدينة نزلت الأرياف. وقبل أن أنزل الأرياف نزلت الواحات. وقبل أن أنزل الواحات رحلت في ركاب الزمان كما يرحل كل أهل الصحراء.

سكت الباشا. هبّت من الشمال أنفاس أخرى.

تكلّمت الأنسام في رؤوس الشجر بلحن خفيّ. أطلق البستاني آهة موجعة. تساءل الباشا:

ـ هل لانخراطك في صفوف أهل الحضرة صلة بانتمائك إلى الصحراء؟

ـ وكيف لا يكون انخراطي في صفوف أهل الحضرة صلة بانتمائي، يا مولاي، للصحراء إذا كان كل الصحراويين ما هم إلاّ أهل حضرة؟

ـ ولكن ماذا تقول عن الحنين؟

ـ آه يا مولاي. هناك الحنين الآخر الأكثر بأساً من الحنين إلى الوطن. في الصحراء يقولون أن كلّ قافلة لا بدّ أن تعود يوماً من حيث أقبلت يوماً. وأخشى أن قافلتي لم تقبل من مكانٍ في الصحراء حتّى يشفي غليلها العود إلى المكان في الصحراء.

ـ من أين أقبلت قافلتك يا عمّ سليمان؟

ـ لا أدري يا مولاي. ما أدريه حقاً هو أنها أقبلت من مكان أبعد من الصحراء، وربّما أبعد حتّى من سماء الصحراء.

سَرَت في أطراف الباشا رعدة مفاجئة. اختفى تعبير التسليم في عينيه. مال إلى الأمام كأنه يريد أن يدرك البستاني ليهمس في أذنه بسرّ. قال:

ـ لماذا لا تريد أن تسمّي الأشياء بأسمائها؟ لماذا لا تريد أن تعترف بحقيقة الوطن؟ لماذا لا تريد أن تحدّثني عن الله؟ قل لي الآن: هل رأيت الله؟

بدأ الباشا يرتجف. ويبدو أن العدوى قد انتقلت إلى البستاني فارتجف أيضاً. وقف أمام الباشا بجسده النحيل المقوّس إلى الأمام، بيديه العاريتين الملطختين بأوحال الطين ورطوبات الأرض فتبدّى في وقفته تلك غريباً حقّاً. تبدّى غريباً ومهجوراً بلا حول ولا قوّة. تبدّى هشّاً أيضاً إلى درجة خيّل فيها للباشا أنه لو صرخ الآن لسقط ميّتاً تحت قدميه من فرط هشاشته.

تبادلا نظرة. نظرة حسبها كلّ منهما دهراً. نظرة غريبة. نظرة جمعت كل أضداد الدنيا وكل ائتلافاتها أيضاً. نظرة فضحت غموض السؤال وعجز كل جواب. نظرة استعارت إعجازها من إعجاز الربوبية التي أفلحت في القول إيماءً وأنكرت استخدام اللسان. ويبدو أن هذا هو السبب في إحجام صاحب الحضرة عن الإجابة واستغناء صاحب السلطان عن الجواب.

ساد صمت. في أشجار النخيل وشوش الريح مرّة أخرى. قال الباشا بعد أن استعاد نصيباً من سكينته:

ـ لقد حدثتني مرّة عن العُقار!

استنكر صاحب الحضرة:

ـ العُقار؟

ـ لقد وعدتني به يوماً خرجتُ فيه من هذا البستان هارباً، هل تذكر؟

طأطأ البستاني حياءً. طأطأ فتبدّى لحظتها طفلاً. العمّ سليمان يتحوّل طفلاً دائماً عندما يستشعر حرجاً. ردّد غائباً:

ـ العُقار، العقار.. نعم، نعم. العُقار..

انتهره الباشا:

ـ لقد وعدتني فلا تحاول أن تنكر!

رفع رأسه. لم يرفعه ليواجه الباشا ولكنه رفع رأسه إلى رحاب السماء الزرقاء، الصافية دوماً، العميقة في زرقتها عمقاً بلا نهاية، عمقاً بلا قاع. قال:

ـ ظننت أن الحزن مضى وانقضى.

ـ الحزن إذا عرف الطريق إلى القلب لا يمضي. الحزن علّة. الحزن علّة العلل. أنت تعرف عن أيّ ضرب من الأحزان أتحدّث!

ـ الحقّ أن..

قاطعه الباشا:

ـ الحزن في النهاية نداء. أنت تعرف ماذا أعني!

ردّد البستاني غائباً:

ـ الحزن نداء..

ـ والمراوغة خداع للنفس يليق بالنساء.

ردّد الرجل بتسليم:

ـ أجل. المراوغة في هذه الحال عار!

هوى ببصره أرضاً. تطلّع إلى الباشا. لم يرَ الباشا في مقلتيه دمعاً، ولكنه رأى حزناً!

## 35

ـ مهما عظم شأن المصاب فإن العبرة بالنجاة!

قالها ربّان السفينة وهو يتفحّص الأرناؤوطي المتنكر في ثياب بدوية مضحكة، ولكن القرصان القديم حدج الربّان بنظرة حقد كأنه علّة خيبته لا علّة نجاته قبل أن يقول:

ـ كلاّ، كلاّ. العبرة ليست بالنجاة، ولكن العبرة بنيل الآمال!

الربّان لم يستسلم:

ـ بلا نجاة لا آمال!

ـ حتى الهلاك يهون، ولكن لا عزاء لنا إن لم نحقّق أحلامنا.

ـ حتى لو كانت أحلامنا أحلاماً جنونيّة؟

أجاب الأرناؤوطي ببرود:

ـ حتّى لو كانت جنونية. بل الأحلام يجب أن تكون أبعد منالاً لأننا لا نحيا بامتلاء ما لم نحلم بجنون!

أطلق ربّان السفينة ضحكة. قال:

ـ عندما بلغني نبأ مغامرتكم قلت في نفسي إمّا أن يكون صاحب هذه المغامرة مجنوناً إمّا أن يكون عاشقاً!

استنكر القرصان:

ـ عاشقاً؟

ـ لأن العشّاق وحدهم أقران مجانين!

ـ بلى، بلى. تستطيع أن تقول أني من أهل العشق. ولكني لا أعشق امرأة ولا أعشق الله أيضاً. أنا عاشق عرش!

ثم أطلق ضحكة منكرة فيما كان الربّان يحدّق فيه بفضول كأنه مخلوق مثير سقط على سفينته من كوكب آخر، أو خرج من بطن البحر المسكون بأغرب المخلوقات. وفي لحظة استشعر قشعريرة عندما تذكّر ما يُروى عن بحّارة كثيرين انتشلوا من أعماق البحور مسوخاً كريهة كانت سبب هلاكهم لأنهم خالفوا ناموس البرّ والبحر الذي يقول بوجوب التقاط أيّ شيء في السبيل باستثناء المخلوق الحيّ، فهل أخطأ بالتقاطه لهذا المخلوق؟

قال:

ـ لم أصدّق أن يقطع إنسان البحر سباحةً أياماً ثم يبقى على قيد الحياة!

ـ لقد خذلني أعواني عندما انسحبوا من المرفأ ما أن انكشف الأمر. ثم خذلني أبناء جلدتي عندما رفضوا أن ينتشلوني بسفينتهم التي أقلعت ساعة رأوني متنكّراً في هذا الزيّ. وقد انتحلت لهم الأعذار لأني أعرف أن الكلّ يتخلّى عنّا عندما تتخلّى عنّا الأقدار!

ـ والكلّ يهرعون للارتماء في أحضاننا عندما تتبسّم لنا الأقدار!

ـ أجارني أغراب النصارى، وتخلّى عني أقرباء العِرق وإخوة الدّين.

ـ هذا هو الحال دائماً.

ـ أنقذني أعدائي في حين لفظني أخلاّئي!

ـ لا نحقّق غلبةً كبرى ما لم نعش هزيمة كبرى.

ـ والحكيم من لا ينتظر الإحسان من أحد.

ـ من لا ينتظر الإحسان من أحد ليس حكيماً فحسب، ولكنه سعيد أيضاً.

ثم مال نحو القرصان ليهمس في أذنه:

ـ ولكن ألم يحن الأوان لتتجرّد من هذا اللباس المضحك؟

أجاب الأرناؤوطي وهو يرنو إلى بريق أشعة الشمس وهي تتلامع فوق مياه البحر:

ـ هذه سترة النجاة!

استعجب الربّان:

ـ سترة النجاة؟!

ـ سترة نجاة ما دامت الأقدار قد حقّقت لي بعونها خلاصاً!

ابتسم قبل أن يضيف:

ـ لو رأيتني في عرض البحر ملفوف الوجه بالقناع المفقود لحسبتني شبحاً من الأشباح ولفررتَ من وجهي بدل إنقاذي!

ـ هل هو قناع الزّنج؟

ـ بل قناع أشباح!

ـ قناع أشباح؟

ـ قناع يروق لأهل الصحراء أن يتخذوه ستاراً يحميهم من القرّ ومن الحرّ، ولولاه لما نجوت من قبضة رجال القرمانلي الذين منعوا في الآونة الأخيرة حتى النساء من الاقتراب من الميناء خوفاً من أن يخطر ببال الدهاة أن يتنكّروا في لباسهنّ.

هتف الربّان:

ـ التستّر وراء الأقنعة عمل جدير بالأشباح حقّاً. لا أعرف لماذا أكره الأقنعة!

ـ وبرغم ذلك فإن حياتنا كلّها أقنعة!

ـ ربّما أكرهها لهذا السبب!

ساد بينهما صمت. ولكن البحر حولهما لم يصمت. كانت السفينة تحرث اليمّ الممتدّ إلى الأبد في كل صوب، تشيّع أنسام الشمال في وجهها أمواجاً شبيهة بغضون يختطّها الريح على بحور الرمل. فوق تضاريس الموج المسالم تتألق أشعة شمس الظهيرة. أمّا الغمر في سعيه فيرطن بلسان الخلود لحناً غامضاً، لحناً لا مبالياً.

قال القرصان فجأة:

ـ في لسانك تحمل هويّة أهل الجزائر، ولكن هل تحمل في جيبك هوية أهل الجزائر أيضاً؟

ابتسم الربّان. طاف امتداد البحر ببصره. قال:

ـ حملت في لساني هويّات كثيرة قبل أن يستقرّ بي لساني على رطانة أهل الجزائر، كما حملت في عبّي هويات كثيرة قبل أن ينتهي بي المطاف لحمل هويّة أهل الجزائر.

استفهم الأرناؤوطي بإيماءة، ولكن الربّان لم يستكمل سيرة الهويّة إلاّ بعد صمت طويل:

ـ بالمولد تستطيع أن تعدّني من أهل نابولي. ثم وجدت نفسي يوماً في مالطا. ثم في مرسيليا. ثم في تونس. ثم في الجزائر، ولا أدري أي هوية ستدخل جيبي غداً.

في مقلة القرصان التمع إيماء ماكر. تساءل:

ـ كيف تبدو تحصينات قلاع الجزائر؟

أجاب الربّان بلا مبالاة:

ـ لا أعتقد أنها ستختلف كثيراً عن تحصينات قلاع طرابلس!

تمادى الفضول في مقلتي الأرناؤوطي. سأل باهتمام:

ـ هل تريد أن تقول أنها في أسوأ حال؟

ـ أقول أنها مهملة منذ زمن بعيد..

قاطعه القرصان:

ـ كيف تبدو بالمقارنة مع تحصينات قلاع تونس؟

ـ لن تختلف كثيراً أيضاً.

ـ وماذا عن الحراب؟

ـ الحراب؟

ـ أعني القوّات التي تحمي القلاع!

سكت الربّان زمناً. قال أخيراً:

- أنت تعلم الحال في السواحل الأفريقية. إنها معزولة عن عمقها. إنها شجرة مقطوعة الجذور؛ لأن من يقطن سواحلها منذ القدم قوم لا صلة تربطهم بدواخلها. إنهم ملل تختلف عن أهلها. لأن أهلها لا يقيمون أبداً على شطوطها. هذا ناموسهم منذ الأزل. وهذا سرّ بقائهم على قيد الحياة منذ أزمنة لا يذكرها أحد برغم قحط أرضهم وشحّ مواردهم. وهو سرّ ضعف الأقوام التي تستوطن سواحل هذه البلدان أيضاً. لأن الشجرة لا تحيا طويلاً إذا تخلّت عنها جذورها!

تابعه القرصان بدهشة. تأمّله طويلاً بعد أن فرغ من روايته. ثم قال:

- صدقت. لقد أقام الأسبان في قلعة طرابلس قرابة المائة عام دون أن يتمكنوا من حكم طرابلس نفسها!

ثم أضاف بحماس:

- ولكن ألا نستطيع أن نقيم في أحد هذه البلدان سلطاناً يعوّل عليه؟

- تستطيع أن تفعل إذا استطعت أن تستعيد الجذور!

- ولكن كيف السبيل إلى استعادة الجذور؟

- بكسب ثقة أهل البلاد الذين يرابطون على التخوم في الجبال ولا يريدون أن ينزلوا إلى السفوح أبداً.

تمهّل القرصان قليلاً. قال غائباً:

ـ هذا يحتاج إلى تدابير قد تثمر بعد أجيال وأجيال.

ـ أعتقد أن الوحيد الذي استطاع أن يفلح في وضع حجر أساس لمثل هذا التدبير هو القرمانلي الأكبر!

حدّق فيه القرصان بدهشة. تمتم:

ـ حقّاً؟

ـ ولهذا السبب أخفقت إمبراطورية آل عثمان في كسر شوكته، وأخفقت إمبراطورية النصارى التي تتزعمها فرنسا في هزيمته، وأخفقت أنت في الاستيلاء على عرشه كما أخفق قبلك الكثيرون!

كان الأرناؤوطي يلهث طوال حديث الربّان. ثم شرع يلتهم الربّان بعينيه كأنه يكتشفه لأوّل مرّة. قال:

ـ هل تظنّ أن هذا هو سرّ خيبتي حقّاً؟

أجاب الربّان بلا مبالاة:

ـ يقيناً!

ـ وهل أستطيع أن أتجنّب هذا الفخّ في أوطانٍ أخرى؟

ـ هذا يعتمد على طبيعة هذه الأوطان أوّلاً، ثمّ حسن تدبيرك ثانياً، ثمّ مشيئة الحظوظ ثالثاً!

أطلق الأرناؤوطي ضحكة. صاح:

ـ أعتقد أن مشيئة الحظوظ يجب أن تأتي في الدرجة الأولى لا الثالثة!

ولكن الربّان خيّب ظنّه:

ـ ليس دائماً!

ـ حسناً. كم معك من الرجال؟

ابتسم الربّان. غاب في البحر بعيداً قبل أن يقول:

ـ في حدود الأربعمائة!

ـ بكم مدفع زُوّدت السفينة؟

ـ ثمانية وأربعون!

ساد صمت. عاد الربّان من رحلة البحر ليجد القرصان في انتظاره. نظر في عين المغامر طويلاً. نظر القرصان في عين الربّان. تساءل:

ـ أيّ الحصنين أيسر منالاً: حصن تونس أم حصن الجزائر؟

حدّق الربّان في عينيه بذهول. سأل باستنكار:

ـ هل تعتقد أنّك ستفلح في غزو حصون تونس أو حصون الجزائر بجيش لا يزيد عن الأربعمائة رجل، وسفينة ذات الثمانية والأربعين مدفعاً؟

## 36

في مقهى «الأعمدة الأربع» اتخذ الحميمان مجلسهما. جلسا طويلاً دون أن ينبسا. لم ينبسا حتى عندما أقبل عليهما نادل المقهى بقهوتيهما. رشف صاحب الشعر المفلفل من قهوته ولكنه لم ينبس أيضاً. سكنا طويلاً زمناً آخر. التفت صاحب الشعر السبط إلى حميمه وسأل:

ـ هل هي الكآبة مرّة أخرى؟

أومأ القرين بهزّة من رأسه علامة الإيجاب ولكنه لم ينبس.

سكت صاحب الشعر السبط أيضاً. سكت ربما إكباراً لصمت القرين. وربما إكباراً لداء القرين. ولكنه لم يلبث أن تساءل مرّة أخرى:

- ألا يجدي حتّى الترياق المدسوس في القهوة؟

تمتم صاحب الشعر المفلفل:

- هيهات!

سكت الحميم لحظات. تابع دبيب المارّة وهم يتقاطعون تقاطع الشوارع الأربع حيث تتقابل الأعمدة الرخامية الأربع كأنها شواهد أربع نصّبها الزمان للتجسّس على جهات الدنيا الأربع!

تكلّم الحميم:

- كلّ مَنْ سمعك وأنت تغنّي لم يداخله شكّ في إنّك أسعد إنسان في هذه الأرض!

تبسّم صاحب الكآبة باستخفاف. انفكّت عقدة لسانه:

- نغنّي لأننا أشقياء لا لأننا سعداء!

- حقّاً؟

- والبلهاء وحدهم يحسبون الغناء طرباً!

- ما هو الغناء في ظنّك إن لم يكن طرباً؟

سكت صاحب الكآبة لحظة قبل أن يجيب:

- لم يكن الغناء يوماً طرباً. الغناء كان في كل الأزمان صلاة!

تعجّب القرين:

- صلاة؟

ـ لا نتعبّد عندما ننقر الأرض بجباهنا، ولكننا نجد أنفسنا بين يدي الله عندما نغنّي!

ـ احترس لئلاّ يسمعك أحد الفقهاء!

ـ اللعنة على الفقهاء.

ـ لا تنسَ أنهم يرمقوننا بارتياب منذ زمن بعيد لأننا لا نهرع لنشاركهم صلواتهم في الجوامع المجاورة، ولولا غموض أمرنا لتمكّنوا منّا!

ـ هل تعتقد أن الغموض هو السبب؟

ـ بالطبع! الغموض أعظم حصن!

سكت صاحب الكآبة. تابع حركة السابلة لحظات. قال:

ـ الركوع صلاة بدن، ولكن الغناء صلاة القلب. ألم يشترط الدّين النيّة لتحقيق الصلاة؟

ـ بلى!

ـ كم إنسان من الزحام الذي يصلّى في المساجد يصلّي في رحاب النيّة؟

ـ تأويلهم للنيّة يختلف كثيراً عن تأويلك أنت!

ـ هذا برهان على الفراق بيني وبينهم!

ـ أخشى أنهم لا يظنّون ذلك!

ـ لهم دينهم ولي ديني.

ـ إنهم يحسبون أنفسهم أوصياء على الدّين!

ـ أوصياء؟

ـ بلى. كل مخلوق من المخلوقات التي تراها تسعى أمامك الآن أعطت لنفسها الحقّ في الوصاية على الدّين منذ زمن بعيد جدّاً!

ـ ومن وهب هؤلاء الأشقياء هذا الحقّ؟

أجاب صاحب الشعر السبط ببرود:

ـ الشهادة!

ـ أيّة شهادة؟

ـ شهادة لا إله إلا الله محمداً رسول الله!

عبس الحميم. قال بلهجة وجع:

ـ أنت ترمي بالهشيم في نار كآبتي بدل أن تهوّن عليّ!

تساءل صاحب الشعر السبط بعد صمت:

ـ ولكن ما الذي يجعل العلّة تستشرس إلى هذا الحدّ؟

ـ لا أدري. ربّما بطُل العجب لو عُرف السبب.

ـ أعترف لك بأنها ضيفي أيضاً!

ـ أعرف.

ـ لقد جاهدت دائماً لأن أخفي فكيف عرفت؟

ـ الكآبة هو ما لا يُخفَى!

ـ حقّاً؟

ـ وماذا ظننت؟

سكت الحميم. رشف من قهوته جرعة. قال:

ـ حتّى الترياق في القهوة يتحوّل ماءً عندما تحلّ الكآبة ضيفاً!

سكت. راقب المارّة. قال:

ـ ألا تظنّ أنه الحنين؟

ولكن القرين قرّر أن يروّض لحناً من لحون المرزكاوي بدل أن يجيب. لم يفلح، لأن اللحن تحوّل في لسانه نحيباً لا أغنية. سكت. تطلّع إليه الحميم فرأى الدموع تسيل على وجنتيه.

## 37

«بيدك لا بيد عَمْرو!».

العبارة وجدها مدوّنة في قرطاس. القرطاس مدسوس في رقعة جلد. رقعة الجلد معلّقة على باب البيت.

جلس على كرسي في البستان فغمرته أشعة شمس الضّحى. خارج السور تنادى الباعة. استعاد العبارة. استعاد السيرة التي أنجبت العبارة. تراءت له الزبّاء وهي تفرّ من وجه عَمْرو الذي اقتحم عليها القصر شاهراً سيفه. تفرّ من العدوّ لا طلباً للنجاة ولكن فراراً إلى الموت. فرّت لتمتصّ السمّ من خاتم في يدها حتّى لا تشفي دماء نحرها غليلاً في نفس عدوّها. وحتّى عندما لفظت مع أنفاسها العبارة التي صارت في لسان الأجيال أمثولة: «بيدي لا بيد عمرو!» فإنها أرادت أن تقول أن الضحية أيضاً تستطيع أن تثأر من جلاّدها. والأموات عندما يسمّمون أنفسهم بأيديهم إنما يسمّمون أعداءهم معهم لأنهم يبطلون انتقامهم. إنهم يميتون جلاّديهم بإماتتهم لأنفسهم. يميتونهم لأن العدوّ الذي لم يحقّق انتقامه بيده فقد مات مع ضحيته أيضاً. لأننا سلالة لا تحيا إن لم تنتقم.

ولا تنتقم إن لم تنتقم بيدها. لأن الحياة كلها ليست رحلة سعادة، ولكنها رحلة انتقام. انتقام بالمهد. انتقام باللّحد. انتقام ما بين المهد وما بين اللّحد. برغم أن كلّنا يحاول أن يخفي شهوته إلى الانتقام عندما يسمّي انتقامه أحلاماً. وبطانة الأدهياء التي تتستّر وراء رداء صاحب السلطان تريد أن تغريه بهذا الضرب من الانتقام لتعزّيه في قدره بعد أن أخفقت بالأمس في كتم أنفاسه بيد مارد الأدغال.

أخفقت في أن تنتقم بيدها فقررت أن تلجأ إلى الصفقة. صفقة يقوم بموجبها بإلقاء نفسه إلى التهلكة مقابل أن ينال من بعده الصيت. مقابل أن تُمسح من صفحته بصمة الخيانة. مقابل أن ينال على لسان النذير نَعْياً. مقابل أن يحظى بمراسم دفن مهيبة. ولكن الخبثاء نسوا أنه مؤمن. فات الخبثاء أنه مسلم. ليس مسلماً فحسب ولكنه إمام المسلمين ومفتي الديار الإسلامية. والإسلام لم يبح لأمّة الإسلام أن تعتنق أمثولات الجاهلية، لا لأنها تجديف في حقّ الحياة واستهانة بعَطية الله فحسب، ولكن لأن الإيمان لا يرى في الحياة رحلة انتقام. ويبدو أن بطانة الأعلاج برهنت دون أن تدري على حقيقتها كبطانة أعلاج. لأنها لم تكن لتعلّق على باب بيته هذا الوهق لو لم تجهل روح الإيمان التي تحرّم على العبد قطع الحبل الذي فتلته يد الربّ.

تسكّع في أرض البستان. في جيبه ترقد الرقعة كأنها ثعبان. مدّ يده ليستخرجها أكثر من مرّة. ولكنه أعاد القرطاس إلى الرقعة في كل مرّة. أعاد الرقعة إلى جيبه في كل مرّة. لم يتخلّص منها حتى عندما ذهب إلى مكتبه ليختطّ في القرطاس العبارة التي قلبت الآية:

«بل بيد عمرو لا بيدي!». دسّ القرطاس في ذات الرقعة التي تلقّى في جوفها الرسالة. علّق الرقعة على باب البيت ثم ذهب إلى جامع الباشا لتأدية صلاة الجمعة فلم تُكتب له العودة إلى البيت أبداً، لأن «يد عَمْرو» ما لبثت أن سدّدت له طعنة بنصل مسموم سريع المفعول حتّى أن المصلّين لم يدركوا سرّ كبوته إلاّ عندما اكتشفوا أن سجدته كانت السجدة الأخيرة: السجدة الأبدية!

## 38

في مقهى «الأعمدة» قال صاحب الشعر المفلفل:

ـ سرّ لم يفشه اللسان لا بد أن يذيعه الزمان!

استفهم حميمه بإشارة فأوضح:

ـ حمداً لله أننا لم نحشر أنوفنا فيما لا يعنينا.

تساءل صاحب الشعر السبط:

ـ هل هذه استعارة في شأن بائع الماء؟

ـ بل هي استعارة في شأن بائع الموت لا بائع الماء!

ابتسم صاحب الشعر السبط. تابع زحام السابلة. قال:

ـ الحمد لله أن الخفاء لم يكذّبني يوم قلتُ أن البوح من شيم أهل الدنيا، لا شيم أهل الفرجة!

ـ ولكنّي أردت أن أنقذ ما يمكن إنقاذه.

ـ إنقاذ ما يمكن إنقاذه ليس رسالة الظلال التي تثقل كاهل هذه الأرض أمثالنا.

ـ كدت أسيء الظنّ برسالة الزمان يومها، وها هو يكشف الأمر الذي أحجمنا عن كشفه.

ـ هذا برهان على صواب الوصية التي تقول أننا لا يجب أن نحرّك ساكناً أبداً!

ـ ألا يجب أن نغيّر منكراً؟

ـ لا يجب أن نحرّك ساكناً أبداً.

رشف صاحب الشعر المفلفل من قهوته المسكونة بروح الترياق.

أطلق ببلعومه صوتاً مكتوماً. تساءل:

ـ الزمان! أي لغز يا ترى هو الزمان؟

أجاب حميمه غائباً:

ـ لغز الزمان هو لغزنا نحن!

ـ هل تريد أن تقول أننا نحن الزمان؟

ـ بلى. في المكان نحن نسكن، ولكن الزمان هو الذي يسكننا!

تطلّع صاحب الشعر المفلفل إلى الفضاء المغمور بعتمة المساء.

قال بلهجة من فاز بقبس إلهام:

ـ المكان لنا جسد، والزمان فينا روح. أليس كذلك؟

استدرك قبل أن يسمع جواباً:

ـ ولكن معجزة الزمن: الكشف!

ـ لهذا السبب نكفر بسلطان الزمان عندما نكشف نيابةً عنه!

ـ هل تريد أن تقول أننا ننتحل دوره عندما نقول؟

ـ بل نعتدي على حرمه!

أطلق صاحب الشعر المفلفل دمدمة مكتومة كمن يروّض لحناً. ولكنه سكت فجأة فتساءل الحميم:

ـ ألا تريد أن تحدّثني عن الكآبة؟

التفت الحميم. التقت نظراتهما. تبادلا نظرة طويلة. قال صاحب الكآبة:

ـ الحقّ أنها تأخذ بخناقي كل ليلة إلى حدّ أعجزني عن النوم.

ـ أووه!

ـ ليس هذا فحسب، ولكنها أعجزتني عن الغناء!

ـ العجز عن الغناء أسوأ من العجز عن النوم.

انتصب بينهما صمت. في المقهى غادر أناس ودخل أناس. في الشارع ذهب سابلة وأقبل سابلة. في السماء اختنق ضياء وهجم ظلام.

قال صاحب الكآبة:

ـ إذا أعجزني الغناء فلا أريد أن أسكن المكان!

ـ لن يضيرنا أن نتحوّل آيةً في الزمان في كل حال.

ـ أليس أكثر أماناً أن نسكن الزمان بدل أن يسكننا الزمان؟

سكت صاحب الشعر السبط أمداً. حدّق في الشارع المغمور بغياهب الغروب زمناً. قال:

ـ أظنّ أن البقاء ليس من نصيب من سكنه الزمان، ولكن البقاء لمن سكن الزمان!

# 39

البلاط. يوليو 1754م.

كانت قارورة في حجم الإبهام. في حجم قوارير العطور. ملآنة بسائلٍ كئيب. فتح سدّادة فوهتها ساعة تلقّاها من العمّ سليمان فغزت أنفه رائحة حادّة، ولكنها مثيرة. كأنّها المرأة اللعوب التي تغوينا برغم يقيننا بأن بين ساقيها يتخفّى الإثم. تتخفّى التهلكة. السائل أيضاً يفوح برائحة تستدرج. لأنه إن لم يستدرج لما صار ترياقاً للحزن. لما صار خلاصاً من كابوس يستنكر الفقهاء الخلاص منه. هذا يعني أن الذهاب في رحلة إلى رحاب جنّات عدنٍ يستدعي أيضاً طُعْماً مثله مثل كل شيء آخر. ألهذا يقال أن الناس لا يذهبون إلى الجنان إلاّ مغلولين بالسلاسل؟

ولكن أمر الدنيا بعد الآن لن يعنيه. أمر أهل الدنيا أيضاً سوف لن يعنيه. وهو ما يعني أن المملكة لم تعد منذ الآن مملكة. والأبناء لن يعودوا بعد الآن أبناء. ونساء القصر يمكن أن يكنّ أي شيء آخر، ولكنهنّ لم يعدن بالنسبة له نساء. والحاشية؟ أعظم ما في الأمر أن الحاشية ستصير بعد قليل وهماً بعد أن كانت طوال هذا الزمان كابوساً. على كلّ مخلوق أن يحمل صليبه ما أن تقرع القارعة. ما أن تطلق مدافع القلعة قذائفها الثلاثة معلنةً انسدال الستار على المهزلة.

أمّا هو فلن يخسر إلاّ قيده، إلاّ كابوسه، إلاّ حزنه الخالد الذي لم يعرف أنيساً سواه منذ قرّر الأب أن يعلّق الوهق في رقبته ويجعله خليفةً لا على العرش، ولكن خليفةً له في الحياة، خليفة جوفاء

جوهرها القرمانلي الأب ومظهرها القرمانلي الإبن. بل هو حسب مشيئة الأب ليس وريثاً على عرش، ولكنه فزّاعة على عرش. فزّاعة خاوية لأن صاحبها الحقيقي مغترب عنها. مغترب لأنه صودر بمشيئة الأب منذ زمن بعيد. ولهذا فإن وضعه الحدّ للملهاة إنما هو نكاية. إنما هو انتقام من الأب. لأن ناموس الأبناء أن ينتقموا من الآباء. ناموس الأبناء أن ينفوا الآباء لا أن يرثوا الآباء. لا أن يخلّدوا الآباء!

بالأمس، بعد عودته من بستان المنشية، حدّثته «أمّ عليّ» رمزاً. حدّثته عن أمر الوراثة إيماءً. كأنّ هذه الداهية حدست (بحسّ الأنثى الذي لا يخطىء) سرّه. حدست كما تتنبّأ الكاهنات بالنوايا. ولكنها لم تجرؤ على كشف نواياها صراحةً، فلجأت إلى لغة الاستعارة. نبشت فيه الروح بكلمها في لحظة تأبّط فيها تميمة الخلاص وظنّ نفسه قد فرغ من شؤون الوراثة وأعفان الدنيا. أحسّ لحظتها بالغثيان كما أحسّه يوم بلغه نبأ الفضيحة التي دبّرتها الحاشية ضد المفتي مستخدمةً مواهب ابن الجنيّة المتنكّر في جلد بائع الماء. يومها أمر باستنزال القصاص بالكلّ. بأبناء الزانية في الحاشية، وبصاحب المجرفتين المميتتين. أمّا المفتي فيجب أن يقف أمام القضاء لإماطة اللثام عن حقيقة ضلوعه في المغامرة الجنونية الأخيرة. ولكن لا أبناء الزانية نالوا القصاص، ولا ابن الجنيّة نال الجزاء، ولا المفتي وقف في ساحة القضاء. بل حدث شيء آخر. سدّدوا نحوه الحربة التي أراد أن يسدّدها نحوهم. سلّطوا عليه المسخ الكريه لينذروه. فقد اعترض سبيله في ردهة الرواق عندما خرج من جلسة لمجلس الأعيان في طريقه للدّار الملحقة بالقصر التي اعتاد أن يقضي فيها

القيلولة من حين لآخر. اعترض سبيله يومها وفي عينيه يتطاير الشرّ. أخلى له العسس المجال عمداً ليدقّ الشرّير عنقه نيابةً عن الأشرار. وقف في وجهه وهو يزفر أنفاساً كريهة. يزفر الأنفاس بسخاء المصابين بالربو. صدره يعلو ويهبط. الشر في عينيه يتمادى. يداه الشبيهتان بمجرفتين فظيعتين مشيعتان إلى أعلى. أصابعهما متوّجة بأظافر كأنها مخالب الوحوش. لا يعرف كم دامت المواجهة، ولكنه لا ينسى الفحيح المريع الذي انطلق من فمه ولا الأنفاس النارية التي لفحه بها قبل أن يصرخ في وجهه: «هيّا يا رسول جهنّم! لماذا لا تعجّل؟ ألا ترى رقبتي بين يديك؟ إذا لم تعجّل فسوف أجلدك بالسياط حتّى الموت يا نطفة النحس!».

لحظتها انطفأ الشرّ في مقلتي المسخ فجأة. وتراجعت الأنفاس في صدره، وخرس الفحيح في فمه، وسقطت مجرفتاه المشيعتان إلى أعلى، واسترخى البدن المزموم واستحال المارد قزماً. كأنّ ذكر السوط تميمة أبطلت مفعول سحر الساحر في غمضة. ليس هذا فحسب ولكن ابن الجنية بدأ يرتجف بشدّة قبل أن ينهار أرضاً ويحتضن قدميه بكلتا يديه.

ولكنه الآن سيعفيهم من عبء الكيد. سيعفيهم جميعاً دون أن يندم على شيء ودون أن يزجّ بأحد في متاهة السؤال والجواب. لقد سأل العمّ سليمان عن طريقة استخدام العُقار فقال صاحب الحضرة: «يستطيع مولاي أن يتناول جرعة إذا شاء شفاءً بطيئاً. أمّا إذا شاء مولاي مفعولاً فورياً فعليه أن يتجرع القارورة دفعة واحدة!».

ولماذا عليه أن يؤجّل الشفاء؟ لماذا عليه أن يستبطىء الخلاص؟

لماذا عليه أن يتردّد في استنزال القصاص؟ لماذا عليه أن يتلكّأ في الارتواء من نبع الانتقام؟

هجع في المخدع. تطلّع إلى السقف. تناول القارورة. فتح سدّادة القارورة. تحسّس فوهة القارورة بأنفه. استنشق عطر الإغواء. شيّع فوهة القارورة إلى شفتيه. تجرّع. مذاق غريب. سكب السائل في جوفه دفعة واحدة. انتظر. سرى الترياق عبر البلعوم مخلّفاً في الفم مرارة محبّبة. مرارة لذيذة. أدرك المري. اجتاز إلى الأمعاء. من هناك استسرى إلى الأوردة. رحل عبر الدم. بلغ تخوم السر فدفع به إلى الاغتراب. دفع به إلى الفرار. في الفرار تلقّفته كفّ لتنطلق به إلى المتاهة. كفّ الحرية، ومتاهة المجهول الذي لم يَعُد مجهولاً!

## 40

في حياته لا وجود لأحد. لا رفيقة عمر تشاطره همّاً، ولا ولد يكون له في دنياه عوناً ويحمل من بعده اسمه، ولا جار يطرق له باباً، ولا حميم يعزّيه في عزلة. في حياته لا وجود لأحد إلاّ الواحد الأحد. المريدون في الحضرة لا يلتقيهم إلاّ في ليلة الحضرة. والباشا لا يسامره إلاّ عندما يفرّ من بطانة القصر ليخلو إلى حزنه في بستان المنشية مرّة في أسابيع، وربما مرّة في أشهر. وفيما عدا ذلك فإن البندير هو جليسه في دنيا الخلوة التي أحبّها لا لأنه لم يشأ أن يخون الله فيما لو اختار المرأة، ولكن لأنّه أراد مرّة أن يكفّر عن خطيئة فذهب لزيارة الغفور في الخلوة. ولم يخطر له على بال أن الخروج من ملكوت الخلوة ليس كالدخول إليه. لأن إغواء الخلوة لا

يقلّ سلطاناً عن إغواء الشهوة. استمرأ الخلوة برغم أنه حاول مرّة أن يتمرّد على سلطان الخلوة. أحبّ مرّة فتاةً فقرّر أن يستجيب. قرّر أن يسكن إليها كما أوصى الدّين، ولكنها ماتت بالسكتة القلبية في اليوم التالي. فاتح أهلها اليوم وماتت صباح اليوم التالي. وكان يمكن أن يربط مصيره بامرأة أخرى لو لم يقرأ في موت حبيبته رسالة. قرأ الرسالة التي تقول أن الله إذا أحبّ إنساناً قطعه. وعندما سئل خاتم النبيين عن معنى كلمة «قطعه» أجاب بالقول أن ربّ العالمين يميت له كل ذي قربى، كما يميت له كل حبيب حتّى لا يبقى له في الدنيا حبيب غير الله، فلم يبقَ له يومها إلاّ أن يحمل غصّته في قلبه ويعود أدراجه إلى الخلوة مردّداً نداءً صار على شفتيه تعويذةً أبدية: «لا أحد إلاّ أنت الواحد الأحد!». صار منذ ذلك اليوم وحيداً في خلوته مع الواحد الأحد.

ولكن الخلوة مع الواحد الأحد (كما اكتشف فيما بعد) ليست فردوساً، ولكنها قصاص! لأن الإنسان يستطيع أن يحتمل الخلوة مع كل شيء (حتّى مع إبليس الرجيم) ولكن هيهات أن يحتمل وزر الخلوة مع الله. فإذا كان الأنبياء أنفسهم حاولوا التنصّل من النبوّة بسبب نار النبوّة فكيف له هو أن يحتمل نار ربّ النبوّة؟

لقد استجدى الانسحاب مراراً. توسّل حميم الخلوة كثيراً لكي يأذن له بالخروج، ولكن هيهات. فالعهد مع الحضرة ليس كالعهد مع المملوك. فإذا كان نقض العهد ثمنه القصاص حتّى مع العابد فكيف إذا كان نقض العهد مع المعبود؟

لقد ذهب إلى الخلوة يوماً لدفع ثمن خطيئة، ويريد اليوم أن

يقترف خطيئة للتحرّر من الخلوة. ذلك أن الدنيا التي جئناها يوماً بسبب الخطيئة لن نخطىء إذا خرجنا منها يوماً بمشيئة خطيئة.

ولا يعرف كيف لم تخطر له هذه الحجّة على بال طوال صلواته في المحراب عندما كان يتوسّل الإذن بالخروج. ولكن أحزان الباشا هي التي ألهمته. عقار الباشا هو الذي أوحى له. هذا العقار الذي احتفظ به في متاعه منذ هجر الصحراء ونزل المدينة كما احتفظ في متاعه بالكفن بكراً، نقياً، ناصعاً، جديداً، مطوياً في لفافة مدسوسة في جراب الجلد المخفي في صندوق الخشب. لأن وصيّة أهل الصحراء تتنقّل لترثها الأجيال بجناحين: أولهما عُقار الخلاص، وثانيهما كفن الأبد. هذا كل ما يحتاجه المهاجر في دنياه في رأي كهنة الأوائل.

وها هو اليوم يُخرج الكفن من حصنه كما أخرج العُقار من صرّة الجلد ليخلط مزيج الأعشاب بالماء قبل أن يتنازل لحميمه الباشا عن نصيبٍ ويترك لنفسه النصيب. ها هو يفعل ذلك دون أن يستشعر خطيئة قطع الحبل المفتول بيد المعبود لا بيد العابد، لأنه يعرف أنه لن يطيق خلوة يعود منها إلى البستان فلا يجد في رحابها صاحب البستان. لأن البستان لن يعود بستاناً، لن يعود فردوساً، إذا هجره صاحب البستان. لأن البستان، لأن الفردوس، وطن لا يطاق بلا صداقة؛ لأن بالصداقة وحدها يستطيع الحميم أن يبادل الحميم عزلةً بعزلة، لأن لا وجود لنعيم غير نعيم صفقةٍ يتبادل فيها خليلان عزلتيهما.

يومها توسّد المريد القديم كفنه الذي حمله في متاعه منذ اغترب

عن صحرائه، وتناول عقاراً كان له تميمة احتفظ بها على صدره لتكون قريبةً من قلبه، ثم. . هجع لينام، فيما كانت مدافع القلعة تطلق قذائفها الثلاثة معلنة بذلك غياب الباشا محمد القرمانلي وتنصيب ابنه عليّ خليفةً له. كأنّ القذيفة الأولى تحية للسلطان الذي تخلّى، والقذيفة الثانية تحية للسلطان الذي تولّى. أمّا القذيفة الثالثة فتحية للسلطان المغمور الذي لم يعرفه أحد، ولم يعترف له بالسلطان أحد، ولم يكن له في دنياه خلاً أحد، باستثناء حميمه الواحد الأحد!

## 41

في أوّل أيام الحداد، في مقهى «الأعمدة الأربع»، في الركن المطلّ على تقاطع الشوارع الأربع، جلس اليوم قرين في حين تغيّب إلى جواره القرين لأوّل مرّة منذ عرف المقهى هذين المخلوقين الغريبين الملفوفين بأستار الغموض. غاب اليوم صاحب الكآبة في حين أقبل على المقهى صاحب الضياء وجلس في الركن وحيداً. طلب قهوة بدون سكر، وبدون ترياق أيضاً. طلب قهوة بدون ترياق لأوّل مرّة ممّا جعل النادل يتردّد كثيراً قبل أن يلبّي الطلب. بل تجرّأ فمال على الرجل ليحشرج في أذنه بسؤال: «هل السيّد على يقين؟»، فهزّ صاحب الضياء رأسه إيجاباً دون أن يرفع إليه بصره. ولكن النادل وقف فوق رأسه طويلاً برغم ذلك قبل أن ينصرف. الرجل برطم بكلام مبهم فعاد النادل على عقبيه ظنّاً منه أن الضيف أراد أن يصحّح الطلب. وكم كانت دهشته عظيمة عندما اكتشف أن خطاب الرجل لم يكن موجّهاً لمخلوق معلوم، ولكنه موجّه إلى المجهول.

لحظتها تجاسر النادل مرّة أخرى فسأل الضيف القديم عمّا إذا كان يريد شيئاً، فما كان من الرجل إلاّ أن لوّح بيده في الهواء باستياء كأنه يهشّ ذباباً. لحظتها وجد النادل في نفسه الشجاعة ليسأل بوضوح:

ـ ما لي لا أرى للضيف صاحباً في جلسة هذا المساء؟

رفع إليه وجهاً عبوساً لأوّل مرّة. في عينيه أبصر النادل شقوةً، بل ربما فجيعةً، عندما أجاب:

ـ الصاحب رحل!

تردّد النادل لحظة قبل أن يسأل:

ـ هل رحل بعيداً؟

أجاب القرين وهو يحدّق في الفراغ بعينين فارغتين:

ـ بعيداً جدّاً!

ـ ألن يعود إلى ديارنا يوماً؟

شيّع الضيف نظره إلى النادل. حدّق فيه بدهشة كأنه يراه لأوّل مرّة. أطلق بحنجرته صوتاً غامضاً كأنه الوجع قبل أن يغتصب بسمة أليمة. قال:

ـ نستطيع أن نقرّر متى نهاجر، ولكن هيهات أن نعلم متى نعود!

هَمَّ النادل بالانصراف. ولكنه توقّف كمن تذكّر أمراً جللاً.

تردّد قبل أن يلقي بسؤال آخر:

ـ ولكن هل هو على قيد الحياة؟

مضى زمن قبل أن يجيبه الضيف دون أن يرفع إليه بصره:

ـ ما معنى على قيد الحياة؟

تردّد النادل مرّة أخرى. على وجهه ارتسمت سيماء انفعال. قال:

- لقد تعوّدنا، يا سيّدي، أن نسمعكما وأنتما تتحدّثان لسان الأحاجي، فظننت أن الرحيل ربّما كان يعني أنه صار.. في عداد الأموات!

استخفّ القرين بابتسامة شاحبة. تساءل:

- وما معنى أن نكون في عداد الأموات؟

- أعني..

ولكن صاحب الضياء ما لبث أن قاطعه:

- من يستطيع أن يجزم بأن الحياة هي الحياة؟ من يستطيع أن يجزم بأن الممات هو الممات؟

أنصت النادل حائراً. ثم التفت إلى صاحب المقهى الذي ظلّ يراقبه من بعيد ويبتسم بغموض. التقت نظراتهما فغمز صاحب المقهى غمزة ذات معنى. انصرف النادل في اللحظة التي كبّر فيها مؤذن جامع «درغوت» معلناً حلول صلاة المغرب. على المدينة زحفت ظلمات المغيب في وقتٍ كان فيه ضيف المقهى ما يزال يحدّث نفسه!

**غولديفيل (الريف السويسري)**

**سالو (الجنوب الإسباني)**

**سبتمبر ٢٠٠٦م**

# مؤلفات ابراهيم الكوني

1 ـ الصلاة خارج نطاق الأوقات الخمسة (قصص) 1974م.

2 ـ جرعة من دم (قصص) 1983م.

3 ـ شجرة الرتم (قصص) 1986م.

ـ رباعية الخسوف 1989م.

4 ـ البئر (رواية).

5 ـ الواحة (رواية).

6 ـ أخبار الطوفان الثاني (رواية).

7 ـ نداء الوقواق (رواية).

8 ـ التبر (رواية) 1990م.

9 ـ نزيف الحجر (رواية) 1990م.

10 ـ القفص (قصص) 1990م.

11 ـ المجوس (رواية) الجزء الأول 1990م.

12 ـ المجوس (رواية) الجزء الثاني 1991م.

13 ـ ديوان النثر البرّي (قصص) 1991م.

14 ـ وطن الرؤى السماويّة (قصص) 1991م.

15 ـ الوقائع المفقودة من سيرة المجوس (قصص) 1992م.

16 ـ خريف الدرويش (رواية ـ قصص ـ أساطير) 1994م.

17 ـ الفم (رواية) 1994م.

18 ـ السحرة (رواية) الجزء الأول 1994م.

19 ـ السحرة (رواية) الجزء الثاني 1995م.

20 ـ فتنة الزؤان (رواية) 1995م.

21 ـ برّ الخيتعور (رواية) 1997م.

22 ـ واو الصغرى (رواية) 1997م.

23 ـ عشب الليل (رواية) 1997م.

24 ـ الدمية (رواية) 1998م.

25 ـ صحرائي الكبرى (نصوص) 1998م.

26 ـ الفزاعة (رواية) 1998م.

27 ـ الناموس (الجزء الأول) 1998م.

28 ـ في طلب الناموس المفقود (الجزء الثاني من الناموس) 1999م.

29 ـ سأسِرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الأول، الشرخ، 1999م.

30 ـ أمثال الزمان (الجزء الثالث من الناموس) 1999م.

31 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثاني، البلْبال، 1999م.

32 ـ سأسرُّ بأمري لخلاّني الفصول (ملحمة روائية)، الجزء الثالث، برق الخُلَّب، 1999م.

33 ـ وصايا الزمان 1999م.

34 ـ نصوص الخلق 1999م.

35 ـ ديوان البر والبحر (نصوص) 1999م.

36 ـ الدنيا أيام ثلاثة (رواية) 2000مم.

37 ـ نزيف الروح (نصوص) 2000م.

38 ـ أبيات (نصوص) 2000م.

39 ـ بيت في الدنيا وبيت في الحنين (رواية) 2000م.

40 ـ رسالة الروح.

41 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 1 أوطان الأرباب 2001م.

42 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 2 أرباب الأوطان 2001م.

43 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 3 أرباب الأوطان 2001م.

44 ـ بيان في لغة اللاهوت (موسوعة البيان) جزء 4 (المقدمة في ناموس العقل البدئي).

45 ـ بيان في لغة اللاهوت (ملحمة المفاهيم) جزء 5

46 ـ منازل الحقيقة 2003م.

47 ـ أسطورة حب إلى سويسرا 2003م.

48 ـ لحون في مديح مولانا الماء 2002م.

49 ـ البحث عن المكان الضائع (رواية) 2003م.

50 ـ أنوبيس (رواية) 2002م.

51 ـ الصحف الأولى (أساطير ومتون 2004م).

52 ـ مراثي أوليس (رواية 2004م).

53 ـ صحف إبراهيم (متون 2005م).

54 ـ المحدود واللامحدود (متون 2002م).

55 ـ ملحمة المفاهيم (موسوعة البيان) ج6، 2005م .

56 ـ ملكوت طفلة الربّ (رواية) 2005.

57 ـ لون اللعنة (رواية) 2005م.

58 ـ هكذا تأَمَّلَتْ الكاهنة ميم (متون) 2006م.

59 ـ ملحمة المفاهيم ج3، (موسوعة البيان) ج7، (2006م).

60 ـ نداء ما كان بعيداً (رواية) 2006م.

61 ـ في مكانٍ نسكنه.. في زمانٍ يسكننا (رواية) 2006م.

## مؤلفات إبراهيم الكوني النظرية

62 ـ نقد ندوة الفكر الثوري 1970م.

63 ـ ثورات الصحراء الكبرى 1970م.

64 ـ ملاحظات على جبين الغربة 1974م.

IN A PLACE THAT WE INHABIT, IN A TIME THAT INHABITS US






# في مكانٍ نسكنه في زمانٍ يسكننا

• ولكنّ الرجل لم يقل شيئًا . الرجل قال كلّ شيءٍ بعينيه فتخلّى عن القول بلسانه كما تخلّى يومًا عن الدنيا بجسده ، فلم يجد الباشا مفرًّا من أن يقول نيابةً عنه :

ـ إيّاك أن تقول إنّه القرآن !

هزّ الرجل رأسه علامة الإيجاب دون أن تفارق النظرة الرهيبة مقلتيه . أفلتت من صدر الباشا صرخة استنكار . هتف بلا وعي :

ـ لا !

ولكنّ الرجل أضاف في اللحظة الّتي تحوّل فيها الإيماء في حدقتيه إلى جنون :

ـ ليس هذا كلّ شيء !

حشرج الباشا يائسًا :

ـ ماذا في جعبتك بعد ؟!

ـ الدم !

ـ الدم ؟!

ـ بلى يا مولاي . لقد سال الدم فلوّث صفحات الكتاب !

ـ عليك اللعنة !

لفظها الباشا كقذيفة . لفظها واقفًا ، ثمّ جلس ليزفر أنفاسًا كأنّها النار . قال :

ـ هل تريد أن تقول إنّ تلك المومس كانت بكرًا ؟!•


ISBN 9953-36-940-2
9 789953 369402



المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨